

مجلة المعرفة

العدد
مكة المكرمة

مكتبة جامعة الملك سعود
الرياض
1964

وَجَدَةُ الْمَعْرِفَةِ

الدكتور
محمد كايل حسين

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة التخصصية المصنوعة
لأصحابها حسن يوسف محمد وأخواتها
9 شارع عدلي باشا القاهرة

المعرفة

في الكون نظام ، وفي العقل نظام ، والمعرفة هي مطابقة هذين النظامين . والنظامان من معدن واحد ، والمطابقة بينهما ممكنة لما فيهما من تشابه . ولو لم يكونا متشابهين لاستحالت المعرفة . ولو لم تكن المطابقة بينهما ممكنة ما علم أحد شيئا . وتشابه النظامين الكوني والعقلي ليس فرضا يحتاج الى برهان بل هو جوهر امكان المعرفة . ومن أنكره فقد أنكر المعرفة كلها . وهذا الانكار خطأ يدل عليه ما حقق العقل من قدرة على التحكم في كثير من الأمور الطبيعية . ولم نكن لنستطيع تحقيق شيء من ذلك لو أن النظامين كانا مختلفين . ومهما تتغير المعرفة ومذاهب التفكير وفهمنا للكون فان الحقيقة التي تثبت ثبوتا قطعيا هو هذا التوافق بين نظام الكون ونظام العقل . وسنرى فيما بعد أن الرقى في النظم الكونية هو الذي أدى الى وجود العقل . وعلى ذلك يكون التوافق بين النظامين أمرا غير بعيد .

والناس علموا علما كثيرا ، بعضه خطأ وبعضه صواب ، وبعضه يحتمل الخلل والصواب . ومقياس الصواب علميا

هو اتساق كل جزء من النظام الكوني مع أجزائه الأخرى
اتساقا يقوم على نظام ثابت يتفق ونظام العقل . وقد تحقق
التوافق بين نظام الكون ونظام العقل في كثير من نواحي
المعرفة واستقام التفكير في أركان كثيرة منها . هذا اذا تناولنا
كلامها على حدة . ولكن هذا التوافق وحده لا يعد دليلا على
أنا بلغنا الصواب فعلا في هذه الأمور . ذلك أن الحقيقة
الجزئية لاتعد حقيقة ما لم يطابق نظامها نظام الأجزاء الأخرى ،
وإذا أردنا أن نبلغ الحقيقة فلا بد من العمل على أن تكون
كل أجزاء المعرفة متسقة على نظام واحد . مثل ذلك مثل من
يحاول أن يركب صورة بعد أن تقطع الى قطع صغيرة . فقد
يوفق الى تركيب جزء بعينه ثم يتبين له أن هذا الجزء لا يتفق
وبقية الأجزاء ، فيكون عليه أن يعيد تركيب هذا الجزء على
نحو جديد يتفق وتركيب الصورة كلها . وفي كثير من المذاهب
الفلسفية والعلمية قديما وحديثا من الاتساق ما يوافق نظام
العقل ومع ذلك ظهر خطأها حين اتسعت المعرفة واضطر
الناس الى نبذ كثير منها بعد أن ظهرت حقائق جديدة يصعب
التوفيق بينها وبين المذاهب السابقة .

وكان جديرا بالمعرفة الانسانية أن تكون ثابتة مستقرة
منظمة ، ما دام النظام الكوني أزليا ثابتا مستقرا منظما .

ولكنها في الواقع مضطربة مفككة ، وفيها شوائب كثيرة ليس أصلها خلافا بين النظامين ، وإنما أصل هذا الاضطراب أنه لم يقدر للعقل حين أخذ نفسه بالبحث في أسرار هذا العالم أن يبدأ حيث يجب البدء . ولم يقدر لعلمه أن ينمو نموا طبيعيا . ولم يقدر له أن يلم بأشتات هذا العلم فيراه جملة واحدة . هذه عيوب ثلاثة لم يكن منها مناص ، قضى بها تاريخ التفكير . وهي أصل كل ما في المعرفة من اضطراب ولولاها لكانت المعرفة اليوم وحدة تامة النظام كاملة الترتيب ، شأنها في ذلك شأن النظام الكوني الذي هي صورته في العقل .

ومن أوضح الأمور أن الترتيب الطبيعي للقوانين الكونية يبدأ بأبسطها وأعمها وأدناها — وسنحدد معنى ذلك فيما بعد — وهي قوانين المادة . ثم تتلو ذلك قوانين الحياة وهي أكثر تعقيدا ورقيا . ثم تأتي بعدها قوانين الانسان وهي أخص وأرقى وأكثر تعقيدا من قوانين الحياة . ولو أن المعرفة بدأت على هذا النحو ، وتقدمت على هذا الترتيب ، ما أصابها من الاضطراب ما نراه فيها اليوم . ولكنها بدأت بالانسانيات ثم اتبعتها بعلوم الحياة ثم بالماديات . النظام الكوني يبدأ من أسفل الى أعلا ، ونظام المعرفة بدأ من أعلا الى أسفل ومن هنا كان الاختلاف.

ولهذا الاختلاف أسباب وله نتائج .

أما أسبابه فترجع الى أن الكشف عن قوانين المادة يحتاج الى أجهزة دقيقة معقدة لم تكن في متناول الانسان عند أول عهده بالتفكير ، ولذلك خفيت عليه قوانين المادة حتى عصرنا هذا . أما جهاز الكشف عن الانسانيات فهو التفكير الخالص . وهو ميسر للانسان من أول الأمر . ولذلك بدأت المعرفة بالبحث في الانسانيات على ما فيها من تعقيد . وكان طبيعيا أن يكون البرهان القاطع على صواب أى أمر من الأمور مطابقتة لنظام العقل . ومن ثم أصبح المنطق معيار الحقيقة . وحسب المفكرون أن كل ما هو منطقي يكون بهذا الوصف وحده حقيقة مطابقة للواقع .

هذا النوع من المعرفة يبدأ بأواخر الأمور . وجل اعتماده يقوم على المنطق والمعقول . ونسى الفلاسفة الأقدمون — أو لم يكن لهم أن يعلموا — أن صحة المذهب والعلم بغاية الأمور لا يؤديان الى العلم بما هو واقع فعلا . مثل ذلك مثل مسألة حسابية تنتهى الى عدد بعينه وليكن ٧٥ مثلا . أيستطيع عالم بالحساب أن يعرف هذه المسألة على وجه التحقيق لمجرد علمه بغايتها وبقواعد الحساب الصحيحة ؟ هناك مئات من المسائل الحسابية كلها صحيحة معقولة

تنتهي بمثل هذا العدد وكلها قائمة على قواعد لا يتطرق اليها الشك . ومع ذلك فان صحة القواعد لا تؤدي الى معرفة أية هذه المسائل هي الحقيقة الواقعة . هذا هو الخطأ الأكبر الذى أصاب الفلسفة ومباحث الانسانيات كلها عند أول نشأتها . حيث لم يكن للانسان سبيل الى تمحيص الحقائق الا ما يهديه اليه عقله وحده . ومن هنا كانت المذاهب المتعددة التى أريد بها تصوير الواقع وكلها معقولة محتملة أو ممكنة . ومع ذلك لم يكن لأحد أن يعرف أيها يطابق الواقع .

التفكير الحديث يرى أن المذهب الحق هو المذهب الذى يتفق والقوانين الطبيعية الأخرى المادية والحيوية والانسانية . بهذا المعيار وحده يتحقق لنا اختيار المذاهب الفلسفية والعلمية الواقعة فعلا . وهو ما نعينه حين نتحدث عن الحقيقة .

ولا نريد فى هذا البحث أن نكشف عن جديد فى العلم . ففى ما نعرفه اليوم ما يكفى لتحديد النظام العام للمعرفة تحديدا يبين ما هو حق من بين المذاهب المحتملة والممكنة عقلا . وانما نريد أن نرتب أجزاء المعرفة ترتيبا يطابق الترتيب الطبيعى للقوانين الكونية فنبدأ بالماديات وقيم عليها قوانين الحياة . ثم نقيم على قوانين الحياة من قوانين الانسانيات ما يكون متفقا مع نظامها العام . بهذا نرجو أن

نبين وحدة التفكير وأن تقضى على ما في المعرفة من اضطراب
أو تفكك .

مثل المعرفة الانسانية وتاريخ نشأتها ونموها وتفكك
أجزائها مثل ثلاثة رجال على حافة بحيرة في وسطها شجرة
ياسقة يغطيها الماء فلا يظهر منها الا أوراقها وثمارها . بدأ
أولهم بالبحث في هذه الأوراق والثمار . بحث خصائصها
وتغيراتها ، وتبين ما تحدثه فيها تقلبات الفصول وحالة الجو
وصفات الماء . وجمع بذلك علما كثيرا ، وخلص من ذلك
كله الى ايجاد قوانين صادقة في بعض وجوهها . فقد يثبت
لديه أن الثمار يتم تكوينها في الربيع ، وقد يعرف أن ظهور
الطمي في ماء البحيرة يصحبه ازدياد في خضرة أوراقها .
ولكنه لا يستطيع مع صدق مشاهداته وحسن استنتاجه أن
يتخيل الصورة الحقة للشجرة فروعها وجذعها وجذورها .
ولا يستطيع أن يدرك أن الأوراق تزدهر حين يوجد الطمي
لما يكون فيه من معادن تمتصها الجذور فتعلو في الأغصان
فتهيء التفاعلات الكيميائية التي تزداد بها خضرة الأوراق .
علم هذا الرجل يقوم على مشاهدات صادقة واستنتاجات
صحيحة وعلاقات بين الأشياء تطابق الواقع ، الا أن ذلك
كله لا يكفي للعلم بطبيعة الشجرة وهيأتها . هذا مثل

العلوم الانسانية من فلسفة وأخلاق واجتماع . فيها كثير من المنطق والمعقول والمحتمل . ولكن ذلك كله لا يعين على كشف طبيعة الانسان وقوانين حياته ما لم نعلم الكثير عن قوانين الحياة والمادة .

ثم اهتدى الرجل الثانى الى طريقة الغوص فى الماء . فكشف بذلك عن أغصان الشجرة وجذعها ، ودرس صفاتها وترتيبها وعلم من جراء قدرته على الغوص علما كثيرا . الا أنه لم يتبين علاقة ذلك كله بما فوق الماء وما تحت الأرض . هذا الرجل أقرب الى تصور الشجرة على حقيقتها من الرجل الذى بقى على الشاطئ لا يرى منها الا ما علا الماء . وعلمه بالشجرة أقرب الى الواقع وأقل تخيلا . هذا شأن علماء الحياة . علمهم بالكائنات أقرب وأشد لصوقا بها من علم علماء الانسانيات بموضوع بحوثهم . وعلمهم يقوم على اسس أكثر ثباتا وأقرب الى الواقع من الأسس التى يقوم عليها علم الفلاسفة وعلماء الاجتماع .

أما الرجل الثالث فكان لديه جهاز يستطيع به أن يطرد الماء عن قاع البحيرة ، فاستطاع بذلك أن يحضر أرضها ويتبين جذور الشجرة ، وهو ما لم يتبينه أحد من رصفائه ممن لم يكن لديهم جهازه . هذا الرجل يمثل علماء الطبيعيات .

علمهم يحتاج الى أجهزة خاصة لا بد منها لمعرفة حقيقة الشجرة وتكوينها .

وحال دون تمام علمهم بالحقيقة أن كلا من الرجال الثلاثة لم يفتن الى ما كشفه الآخرون ، ولم يهتد أحد منهم الى الجمع بين علمه وعلم الآخرين جمعا يبين حقيقة أمر الشجرة كلها . وكذلك ظلت علوم الطبيعيات وعلوم الحياة والانسانيات علوما منفصلة وحال تفرقها دون بلوغ أى منها غايته .

والواقع أن كلا من هذه العلوم ضرورى للعلوم الأخرى . فالانسانيات تقوم على مذاهب متعددة كلها معقولة منطقية قابلة للتصديق . وانما يحدد وجه الحق فيها ما يكون منها مطابقا للعلوم البيولوجية . والعلوم البيولوجية تقوم على مذاهب كثيرة كلها قابل للتصديق ، وانما يحدد الحقيقة فى هذه المذاهب ما يكون منها مطابقا للعلوم الطبيعية الأخرى . قوانين المسادة ضرورية لتحديد أى القوانين البيولوجية يطابق الواقع . وقوانين الحياة ضرورية لتحديد أى قوانين الانسانيات — وكلها مقبولة عقلا — يطابق ما هو واقع فعلا .

هذان العيان — عيب استقلال كل جزء من الأجزاء الكبرى للمعرفة بنظمه وقوانينه ، وعيب البدء بأواخر

الأمر — أحدثا كثيرا من اضطراب التفكير . وزاد الأمر
تعقيدا عيب ثالث هو اختلاف النمو في الأجزاء الثلاثة .
فقد ظل الناس يبحثون في الانسانيات عشرات القرون قبل
أن تصبح البيولوجيات علما ، ولم يتم ذلك الا في القرن
التاسع عشر . ولم يتبين العلماء الأسس الثابتة للطبيعيات
الا في القرن العشرين . لذلك بقيت المعرفة دهرا طويلا
كالهرم المقلوب ، يرتكز على علم ضيق بالماديات وعلم مفكك
بالبيولوجيات ، وأعلاه علوم الاجتماع والفلسفة والفنون ،
نامية مزدهرة . ولم يكن للانسانيات أن تستقر وهي تركز
على أساس من العلم قليل لا يصلح قاعدة لبنائها الضخم
الذي أقامه المفكرون على مر القرون . ولم يكن لهؤلاء
المفكرين أن يعلموا أن العلم بالطبيعيات والحياة ضروري
لفهم الانسانيات فهما حقا . وأن القضايا العقلية الواضحة
الثابتة منطقيا لا تعد حقيقة لمجرد وضوحها أو معقوليتها .
وأنها لا تكون حقيقة علمية حتى يتفق نظامها ونظام
الكون عامة .

الإصلاح المنهجي الذي ندعو اليه يقوم على أنه قد
حان الوقت الذي نستطيع فيه أن نغير من وضع هذا الهرم
المقلوب فنجعل المعرفة هرما قائما على أساس الطبيعيات .

وهي أساس عريض ثابت ، قائم على البرهان والتجربة ،
فيه تكون القضايا عامة غير قابلة للاستثناء ، وفيه يكون
الواقع معروفا لا يحتمل الشك ولا يتسع للأراء المتضاربة ،
وفيه يكون الواقع والمعقول شيئا واحدا لا يقبل الخلاف .
ثم نقيم على هذا الأساس علوم الحياة على نسقه وأسلوبه ،
فيتحدد لنا بذلك المذهب الحق من بين المذاهب الحيوية .
ثم نقيم على هذا كله علوم الانسانيات متسقة في نظامها العام
مع علوم الحياة فيتين لنا المذهب الحق من بين المذاهب
الانسانية المتعددة .

وعلى ذلك فان مدار البحث في هذه الرسالة لن يكون
ايجاد حقيقة علمية جديدة أو قوانين جديدة أو مذهبا
جديدا . بل ستكون غايته الجمع بين فروع المعرفة جمعا
يبين لنا الصورة الكاملة للمعرفة كلها . عند ذلك تتبين
وحدة التفكير ووحدة النظم الكونية ويكون علينا اذا
انسقت لنا الصورة كاملة ، أن نسقط من المعرفة كل
ما لا يتفق مع هذه الصورة .

جهاز التفكير

إذا أردنا أن تكون صورة المعرفة كاملة تامة فليس لنا مناص من البحث في طبيعة العقل وكنهه . فهو جهاز التفكير الذي به تتحدد المعرفة . ولكننا لا نرى البدء بهذا البحث . لأن ذلك يكون خطأ منهجيا . وقد بينا من قبل أن البدء بالبحث في تحديد العلاقات بين غايات الأمور ومعتقداتها لا يؤدي الى الحقيقة . والبحث في طبيعة العقل يجب أن يكون آخر البحوث كلها . ويجب أن لا تتناوله الا بعد أن يتم علمنا بالكون والانسان . ويكفينا الآن أن ننظر الى العقل على أنه نور يلقي على الأشياء فيضيئها ، ويتيح لنا فهمها . ولنا أن نستخدمه جهازا للتفكير دون أن نفهم ماهيته حتى تتم لنا صورة المعرفة كاملة فنضعه منها موضعا حقا لا نستطيعه في أول البحث .

ولا نزاع في أن من يستخدم جهازا يجب أن يعلم صفاته وخصائصه وان جهل كنهه وطبيعته . لذلك كان حتما علينا أن نبحث خصائص العقل وصفاته الغالبة من حيث هو جهاز التفكير ، وان لم نعلم كنهه .

العقل لا يطبق الفوضى ، ولا يحتمل الفراغ ، ولا غنى له
عن تجسيم المعنويات . ثلاث صفات للعقل لها أكبر الأثر
فيما آل إليه التفكير الانساني . والبحث فيها يوضح كثيرا
من مزايا العقل وعيوبه ، وقوته وضعفه .

فمن أخص صفات العقل أنه لا يطبق الفوضى ، فهو
يتناول كل ما يعرض له من أمور بالتنظيم والترتيب . ولو
أن العقل لم تكن له هذه القدرة على التنظيم ما استطاع
أن يطمئن الى القوى الطبيعية التي تحيط به ، ولأصبحت
الحياة الانسانية — من حيث هو انسان لا مجرد حيوان
راق — مستحيلة . ولو أنه لم ينظم حياته طبقا للقوانين
الطبيعية لاضطرت حياته كلها . هذا الخوف من الفوضى
سبب من أسباب الرغبة القوية التي تدفع العقل الى تنظيم
كل ما يعرض له . على أنى أعتقد أن هذه القوة التنظيمية
لها أسباب أعمق من ذلك . فهي قوة غريزية في العقل .
يدل على ذلك ما نراه من النظام في اللغة مثلا . واللغة
عمل عقلي محض وهي تنشأ منظمة ، وقواعد اللغات
منطقية من قبل أن يعرف أهلها شيئا عن النظام الذي تقوم
عليه . والواقع أن العقل ينظم الحياة العقلية والمذاهب الفكرية
دون أن يكون للخوف من الفوضى أثر في هذا التنظيم .

ثم ان تنظيم حياة الناس خلقيا واجتماعيا واقتصاديا يبدأ قبل
أن يتبينوا خطر الفوضى في هذه الأمور . كل ذلك يدل على
أن التنظيم قوة خلقية ثابتة في العقل .

والعقل لا يحتل الفراغ . وليس معنى ذلك أنه
لا يعترف بجهله أشياء بعينها . وانما يعنى ذلك أن العقل
يحاول أبدا أن يكون علمه كافيا لتفسير كل ما غمض عليه .
والاتزان العقلي لا يتم للانسان الا اذا كان علمه مهما قل
يملا فراغ عقله كله . كما يملأ الغاز مهما قل الاناء الذى
يكون فيه مهما كبر . لهذا كان حتما أن تكون المذاهب
الدينية والفلسفية كاملة تحاول كلها التفسير التام لكل
ما يعرض للانسان .

ومن خصائص العقل أنه يحاول جاهدا أن يجسم
المعنويات . فنراه يمثل معنوياته تمثيلا يجعلها في متناول
حواسنا العادية . ومن هنا كانت رغبة الناس في تمثيل
الايمان بالعبادات ، ومن هنا نشأت رغبته في تصوير الجمال ،
والتغنى بالحب . واختراع الموسيقى كل ذلك ابراز لمعنويات
كامنة في النفس في صور حسية . والواقع أن الانسان قد
لا يكون في آخر الأمر الا جهازا يحول المعنويات الى ماديات
تدل عليها . وجهازا يدرك المعنويات في الماديات التى حوله .

وسنرى فيما بعد أن كل شيء في الكون هو الوسيلة لابرار
قوانين بعينها تتعلق بهذا الشيء . ولما كانت المعنويات هي
القوانين الخاصة بالانسان وحده كان هو وسيلة ابرازها .
وسنظل دائما في حاجة الى ابراز معنوياتنا في صور حسية .

هذه الصفات الثلاث ثابتة في العقل . وهي مصدر
قوته . الا أنه ضل بها كثيرا . ولا بد من تقدير هذا الضلال
عند البحث في التفكير . وأصل هذا الضلال ما يكون في
علم الانسان من نقص . فحين تكون الحقائق التي لدى
العقل قليلة نراه يضطر الى تنظيم علمه وملء فراغه وتجسيم
معنوياته قسرا مسرفا في ذلك على نفسه وعلى الحق .
وهو في ذلك مسوق بقوة قاهرة تجعله لا يستقر حتى يجد
نظاما يرتاح اليه . فان وجد النظام الحق كان خيرا . وان لم
يوجد فلا مانع من اختراع نظم مصطنعة لا تقوم على أساس
من الواقع . ذلك أصل الخرافات وهي عون كبير على ملء
الفراغ وتنظيم التفكير حين يكون جهلنا بالنظام الحق
كبيرا . وهي عامة في العصور الأولى لكل أمة .

ولو أن العقل لم يكن مضطرا بطبيعته التي بينها الى
الشطط عند الجهل . ولو أنه استطاع أن يكبح جماح نفسه
فلا يخترع من النظم شيئا الا عند تمام علمه بحقائقه كلها

لاستقام التفكير ولأصبحنا اليوم في غير حاجة الى تقض الآراء
الكثيرة التي لا أصل لها الا هذه الحاجة الملحة الى تنظيم
القليل الذي نعلمه ، والى خلق ما نملأ به فراغ العقل وان
يكن ذلك خيالا محضا ، كماختراعنا للجن تفسيراً لما لا نعرف
له سبباً . وعلينا أن نحسب حساب ذلك كله عند تقديرنا
لما أتجه العقل من حيث هو جهاز التفكير .

مذاهب التفكير

مذاهب التفكير الكبرى نوعان، النوع الأول خرافى علمى ،
والنوع الثانى فلسفى دينى . الأول موضوعه ربط الأشياء
بعضها ببعض ، وكشف العلاقات بين الأسباب والمسببات .
أما الثانى فهو بحث غائى شامل موضوعه غايات الأمور .
وكلا المذهبين خضع لخصائص العقل من حيث هو جهاز
التفكير ، وكلاهما تأثر بما فى هذا الجهاز من نزعة غالبية الى
التنظيم وملء الفراغ وتجسيم المعنويات وكلاهما تعرض
لما تؤدى اليه هذه النزعات من خطأ حين لا يكبح جماحها
علم كاف .

وليس عجيبا أن نجمع بين الخرافات والعلم فى مذهب تفكير
واحد . فالخرافات أول العلم . والخرافة نظرية لم تثبت ،
والعلم خرافات تثبت أصولها ، وأطردت نتائجها الى حد ما .
وعلم أمس لا يعدو أن يكون اليوم خرافة ، وعلمنا سيكون
عند أبنائنا خرافة . وقوام هذا المذهب الخرافى العلمى هو
قدرة العقل على تنظيم ما يعلم ، وحاجته الى هذا التنظيم .

وهو عام في الناس جميعا ، ولا يخلو تاريخ أمة أو فرد من عهد بدائي تكون فيه الخرافات أول مظاهر التفكير .

وقد تبين لي ذلك يوما كنت أرقب فيه طفلا يلعب ، وكان شديد الخوف من الققط . ثم حدث له أثناء لعبه أن مست يده جرسا كهربيا في الحائط ، فشعر من جراء ذلك بهزة كهربية خفيفة . فجرى الى أمه خائفا وهو يقول أن في الحائط قطة . هذا الطفل لم يكن يعلم الا شيئا واحدا يخيفه وهو القطة ، ثم علم شيئا جديدا أخافه ، وكان هذا شيئا في الحائط فكان طبيعيا أن يربط بين هذين الشيتين الوحيديين اللذين أخافاه والنتيجة المنطقية لهذا الربط أن يقول أن في الحائط قطة . هذا هو جوهر التفكير عند البدائيين . فاذا رأى أحدهم رجلا يموت ونجما يهوى فان عقله يربط بين هذين الأمرين فنراه يعتقد أن موت هذا الرجل انما يرجع الى هذا النجم الذي هوى . على هذا النحو تنشأ الخرافات . فهي طبيعية في العقل عند أول عهده بالمعرفة . وقد دهش المفكرون لاطراد الخرافات في تاريخ كل تفكير ، ومن هؤلاء برجسون الذي لم يستطع أن يتبين الفائدة من هذه القوة الخرافية ، وتساءل عما يفيد الناس من الخرافات ، وحسب أن ذبوعها بين الناس كافة يدل على أن لها فائدة في حياتهم

وان لم تظن نحن اليها . والواقع أن الأمر في الخرافات ليس أمر فائدة تعود على البدائيين من وجودها . وانما هي شيء لا مناص منه في أول عهود التفكير . ذلك أن الانسان في أول الأمر لا يعلم الا قليلا من الوقائع . وقوة التنظيم في العقل تحتم عليه أن يجد رابطة بين هذه الحقائق القليلة . وهذه الرابطة قد لا تكون الا توافقا عرضيا في الزمان أو المكان . والبدائي يرى في هذا مسوغا كافيا لاثبات أن بعض هذه الوقائع سبب للبعض الآخر . ومن هنا ينشأ هذا النوع من التفكير الذي نسميه خرافة .

ثم يكثر علم الناس بالوقائع المتعددة ، وتبين لهم علاقات جديدة بين هذه الوقائع . حتى اذا بلغت هذه العلاقات حدا يجعلها ذات نتائج مطردة أصبحت الخرافات علما . فالعالم الذي يكشف عن ميكروب خاص في مرض بعينه يربط بين المرض والميكروب ، وهو ربط من نوع ما يفعله أهل الخرافات حين يجعلون بين الموت وسقوط النجم سببا ، الا أن العلاقة بين المرض والميكروب مطردة وليس هذا الفرق بين ما هو خرافة وما هو علم فرقا محددا . والأطباء الأقدمون كانوا يعرفون من أسباب الأمراض ما لم يكن حقيقة كالأخلاق والأمزجة وكانوا يعدون ذلك علما ونحن

نعدده خرافة . فالفرق بين الخرافة والعلم فرق نسبي كالفرق بين الحرارة والبرودة . وليس فرقا جوهريا ، بل هو فرق في درجات التحقيق في مذهب تفكيرى واحد .

هذا التفكير الخرافى العلمى مداره السببية ، وهو فى أكمل حالاته يبدأ بأوائل الأمور وينتهى بأواخرها . ومما يزيد فى قوته ونموه كثرة الوقائع التى يتناولها . وهو مذهب دائم النمو ، والتفاصيل تزيد فى بيان ما هو صحيح وما هو خطأ . وقد تفضى أصغر التفاصيل على أكبر نظرياته . على أنى لا أرى أن هناك ما يدعو الى التقديس الذى أسبغه العصر الحاضر على هذا النوع من التفكير وليس لنا أن نتجاهل غيره من المذاهب . ولا نزاع أن له على المذاهب الأخرى فضل سهولة اثبات قضاياها وصدق البرهان عليها . ثم أن قوانينه مطردة ، والاستثناء فيها غير مقبول . وخير ما فيه أن المعقول فيه يوافق الواقع حتما ، وبذلك يكون الحق فيه أوضح . ولكنه ليس التفكير الطبيعى الوحيد . وليس أقرب الى الحق من التفكير الغائى الشامل الذى سنعرض له .

هذا التفكير الطبيعى الثانى هو المذهب الفلسفى الدينى . وهو مذهب غائى شامل ، يبدأ بأواخر الأمور . ويفسرهما تفسيراً كاملاً ، وهو مذهب يضيق بالتفاصيل ، ويزعجه

البحث الدقيق في ما هو واقع فعلا ، وهو يعد قضاياها حقا مطلقا ، اذا وافقها الواقع فالواقع صواب وان خالفها فالواقع خطأ الى أن يصوبه التأويل . ومن آثار هذا المذهب الدين والأخلاق والفلسفة والاجتماع . والمحدثون الذين بهرتهم العلوم الطبيعية يسيلون الى التهاون بهذا المذهب ، وقد نكون على حق في ذلك ، لأن وجه الصواب والخطأ فيه صعب التحقيق ؛ ومعايير الحق فيه مختلفة . وفي أكثر أنظمتها تناقض واضح وأن تكن كلها معقولة . على أن الأمر ليس أمر مفاضلة بين المذهبين أيهما أقرب الى الصواب . فالواقع أن كليهما طبيعي في العقل البشرى ، وكلاهما له أكبر الأثر في تكوين الصورة التي عليها المعرفة الانسانية اليوم . وكل منها له موضع في هذه الصورة التي لا تتم بدونهما معا .

وموضوع المذهب الخرافي العلمي هو تحقيق العلاقات القائمة بين الأشياء ، فهو ينظم هذه العلاقات تنظيما معقولا وهذا أمر سهل حين يتناول البحث خصائص المادة ، أما حين يمتد البحث الى الكائنات الحية ، وحين يتناول الانسانيات والمعنويات والخلق والضمير والجمال فان التحقيق العلمي للعلاقات في هذه الأمور يصبح عسيرا جدا . وقد نبلغ من ذلك غاية الكمال فلا تكون في الكون ظاهرة مادية أو معنوية لا تعرف أسبابها وأصولها وموقعها من الظواهرات الأخرى .

ولكن ذلك لن يكون محققا لكل ما فى العقل البشرى من نزعات . فهو يحقق حاجته الى التنظيم ولكنه لا يملأ كل فراغ فيه ، وهو لا يعينه على تجسيم معنوياته . وأكبر فراغ فى العقل هو ما يتعلق بالقوى العليا التى تسيطر علينا ولا نعرف عنها شيئا الا أثرها فىنا . وهذا الفراغ يملؤه التفكير الفلسفى الدينى ولا غنى لنا عنه وان كان ميدانه يضيق شيئا فشيئا . ثم أن تحقيق العلاقات بين الانسان ومعنوياته لا يكفى لارضاء نزعته الى ابراز هذه المعنويات فى صورة عمل محسوس . فاذا أثبت العلم أن الشجاعة تتعلق بمادة كيميائية فى الجسم أو ضغط كهربى فى غدة بعينها فلن يكون ذلك مقنعا للنفس الا أن تعرف كيف تعبر عن الشجاعة تعبيرا صادقا فى هيئة عمل ما . وكذلك الجمال قد تعرف حقيقته معرفة ثابتة ثبوتا رياضيا لا يتطرق اليه الشك . ولكن النفس الانسانية تظل فى حاجة الى ابراز هذا الجمال على صورة محسوسة .

هذا التحليل لخصائص العقل من حيث هو جهاز التفكير أمر ضرورى لفهم أثر هذا الجهاز فى المعرفة . وأن تكن خصائص الجهاز لا تؤثر فى مادة هذه البحوث وموضوعها وهو النظام الكونى . فهذا النظام قائم منظم سواء أفهمناه على وجه أو على آخر أم لم نفهمه أصلا . ولكن فهم نظام العقل

يحدد صورة هذا النظام في المعرفة . كما تحدد خصائص
جهاز التصوير الصورة التي يلتقطها لما يكون أمامه .

ولن نجد مذهباً من هذين المذهبين الكبيرين تقياً خالياً
من آثار المذهب الآخر . فالمذهب الخرافي العلمي يلجأ في كثير
من الأحوال إلى اختراع نظم وتصوير فروض لا يبررها إلا
الرغبة في ملء الفراغ في الوقائع أو النظريات . وكثيراً
ما يؤدي به هذا إلى طرق ملتوية وخطأ في الاستنتاج يصعب
التخلص منه فيما بعد . والمذهب الفلسفي الديني يلجأ كثيراً
إلى تناول أمور تفصيلية ليس من طبيعته أن يتناولها فيفضل
بها كثيراً . ومن هذا الخلط نشأ كثير من الاضطراب والتفكك
في التفكير الإنساني .

وقبل أن نختم هذا البحث في مذاهب التفكير يجب أن
تؤكد أن خصائص العقل من حيث هو جهاز للتفكير لا تؤثر
في الحقائق نفسها وإنما هي تحدد صورتها في نفوسنا .
وأن اختلاف مذاهب التفكير لا يمنع من وصولنا إلى حقيقة
الأمور مكيفة بهذا الجهاز وقدرته وضعفه . على هذا يصبح
البحث عن الحقيقة أمراً مستطاعاً على النحو الذي يتيسر
للعقل . وهذا النحو يعتبر حقيقة مهما تكن صفات العقل .
على أنه لا بد في كل من هذه المذاهب من إثبات الحقيقة
بنوع من أنواع البرهان . والبراهين تختلف في كل منها .

البراهين على الحقيقة

الحقيقة هي وضع كل ظاهرة مادية كانت أو معنوية موضعها من النظام الكونى . واذا كان العقل هو الوسيلة التى توضع بها الظواهر موضعها فلا بد له من طريقة يتبين بها أنه أصاب فى تحديد هذا الموضع . وبعبارة أخرى لا بد له من أن يجد برهانا على الحقيقة . وأنواع البراهين كثيرة مختلفة . بل أن لكل مذهب من مذاهب التفكير طريقة الى اثبات الصواب تختلف عن طريقة غيره من المذاهب .

أما البرهان فى المذهب الخرافى العلمى فقد أصبح ثابتا واضحا معروفا . فهو يقوم على الاطراد ، وعلى أن العلاقة بين موضوعات البحث فيه يمكن اخضاعها لنظام رياضى ثابت مهما يكن تعقيده . ولدينا من العلم بالنظام الكونى والعقلى ما يثبت أن كلا منهما نظام رياضى . لهذا أصبح البرهان الماتماطبقى هو البرهان الذى يطمئن اليه العقل اطمئنانا تاما . وأكثر النظريات العلمية تظل فروضا حتى يستطيع حسابها رياضيا . عند ذلك يتبين صدقها وتثبت بذلك الحقيقة .

هذا هو آخر تطورات البراهين فى هذا النوع من التفكير.

ولم يتضح هذا في أول عهود التفكير العلمى الخرافى . فقد كان البدائيون يظنون أن توافق أمرين زمانا أو مكانا برهان كاف على السببية . بل منهم من كان يتجاهل ذلك فتراه يعلل الأمور بأسباب لا حقة لها زمانا أو بعيدة عنها مكانا . ثم كثر علم الناس بالظواهر وعلاقاتها ومن شأن هذه الكثرة أن تجعل الربط بين الظواهر أقرب الى الاطراد وأشبه بالقوانين العامة ، لأن الكثرة تمحو الأسباب العارضة . حتى اذا أصبحت العلاقات منظمة ثابتة خاضعة للتجربة والحساب كان ذلك آخر الخرافات وأول العلم . وعلى هذا يمكن الجزم بأنه اذا أمكن الكشف عن علاقة ثابتة رياضية بين الظواهر كان هذا برهانا مقبولا على الحقيقة فى هذا الضرب من التفكير .

أما التفكير الفلسفى الدينى فلم يهتد الانسان بعد الى برهان فيه مقطوع بصحته كما هو الحال فى العلوم . ذلك أن موضوعاته لا تخضع للتجربة والحساب . ولا بد لها من نوع آخر من البرهان . أما التفكير الدينى فالبرهان عنده برهان نفسى . ومقياس الحق فيه الالهام والشعور النفسى أن ما يعتقد المرء هو الصواب . وليس خطأ أن تتخذ النفس مقياسا للحق فى أمور الايمان . ولكن الفلاسفة لم يقنعوا

بهذا البرهان على الحقيقة الدينية فهم يقولون أن الشعور
النفسى يختلف ، وأن إبراز هذا الشعور يتم على صور
مختلفة ، ولا يدري أحد أى هذه الصور يطابق الحقيقة
وهم يرون أن هذا النوع من البرهان يجعل الحقيقة فى
أمور الايمان حقيقة ممكنة ليس ألا . وعندهم أن الشعور
النفسى لا يمكن أن يكون وسيلة اثبات معقولة مقبولة . وأنه
لا مقر لنا من برهان من طراز آخر عندما تتناول الانسانيات
بالبحث .

أما الفلاسفة فالبرهان عندهم هو مطابقة أمر ما للمنطق .
كأن كل ما يطابق المنطق يكون بهذه الصفة وحدها حقيقة ،
ثم تبين أن هناك مذاهب كثيرة كلها منطقية . ولا يمكن أن
تكون كلها حقيقة لما فيها من تناقض واضح . ولا يدري
أحد أيها هو الصواب . ثم قيل أن الوضوح التام هو البرهان
على الصواب . ثم ظهر أن هذا الوضوح لا يصلح برهاناً
على شيء . وظن الناس أن كمال أى مذهب فلسفى يدل على
صدقه . ولكن المذاهب الفلسفية الكاملة كثيرة ، كل منها
منطقى لا تناقض فيه ، ومع ذلك فإنها لا يمكن أن تكون
كلها حقيقة .

والتفكير العلمى لا يقنع بالبرهان المنطقى المجرى ، كما

لم يقنع التفكير الفلسفي بالبرهان النفسي المجرد . وإذا كان الفلاسفة يميلون الى الغض من قدر البرهان النفسي في اثبات الحقائق الدينية لأنها لا تقوم على المنطق فان العلماء يميلون الى الغض من قدر التفكير الفلسفي لأنه يقوم على المنطق وحده لا على الواقع .

على أنه ليس للفلسفة أن تنقص من قدر التفكير الديني ، فالواقع أن التفكير فيهما من طبيعة واحدة ، كلاهما غائي شامل . والمسوغ لهذا النوع من التفكير انما هو في حاجة الانسان الى ملء ما يكون في النفس من فراغ ، والى تنظيم ما يجهله العقل ، والى تجسيم المعنويات . والدين في هذا أقوى من الفلسفة . فهو أكثر منها شمولاً ، وأقدر على تناول ما نجهل حقيقته ، والدين يملأ فراغ النفس بما لا تستطيعه الفلسفة ، وتجسيم المعنويات عن طريق الدين أكمل وأتم بل أن الفلسفة لا تكاد تبلغ من هذا شيئاً . وإذا كانت الفلسفة أقل من الدين تحقيقاً لغاياتها فهي أقل من العلم قدرة على تناول الحقائق الواقعية . الدين والعلم هما طرفا المعرفة . والمذاهب الأخرى كلها حائرة بين الطرفين .

والآن نعود الى البحث في ما يمكن أن يكون هناك من برهان على الحقيقة في غير العلوم التي ثبتت أصولها ،

وعرف وجه الحق فيها ، والتي يقوم البرهان فيها على مطابقة النظريات لما هو واقع فعلا مطابقة تامة من كل وجه ، مطابقة لا تقبل الاستثناء .علينا أن نجد المعايير التي تمحص بها الحقيقة في أمور العقيدة والضمير والأخلاق والجمال والحب . وخاصة بعد أن ثبت أن البراهين النفسية والمنطقية لا تكفى لتحديد ما هو واقع فعلا . هذه البراهين كافية لاظهار ما هو خطأ ولكنها لا تحدد الصواب لكثرة المذاهب الصحيحة عقلا ونفسا .

المعيار الذى يقاس به الحق فى المعنويات هو اتساق النظام المقترح مع النظم الكونية التى ثبت صوابها ثبوتا علميا والتي عرف نظامها رياضيا . والأصل فى ذلك أن الكون له نظام واحد أوله الماديات وآخره — على الأقل فى ما يتعلق بالانسان — المعنويات . وليس هناك ما يدعو الى فرض نظامين مختلفين كل الاختلاف اذا كان من المستطاع أن نجد نظاما عاما يشمل الأمرين معا . فاذا استقام لنا أن نجد هذا النظام الشامل الذى تتبين فيه أوجه التقارب بين الماديات والمعنويات فان اتساق هذا النظام يصبح معيار الحقيقة فى المعنويات .

وقديما عرف الناس أن عقدة العقد فى المعرفة هى

ايجاد الأساس المادى للأخلاق والضمير ، فان بينهما فجوة
لم يهتد أحد بعد الى عبورها . ولا بد من الكشف عن هذا
الأساس قبل الحديث عن وحدة المعرفة .

علينا أن نقيم بناء المعرفة من جديد . على أن يكون
أساس هذا البناء ما نعرفه معرفة كاملة من نظام الماديات .
وهذا أمر ممكن وان لم يكمل علمنا بتفاصيل هذا النظام بعد .
مثل ذلك مثل المثلث ، اذا عرفت قاعدته وزاويتييه أمكن
معرفة الكثير من خصائصه وان لم يكمل رسمه . على هذا
الأساس نقيم علوم الحياة على النسق نفسه . حتى اذا استقام
لنا من العلم بالبيولوجيا ما يستطاع معه أن نعرف نظامها ،
قاعدته وزاويتييه ، امكن بعد ذلك أن تنتقل الى نظام الانسان
ومعنوياته فننظمها نظاما لا يختلف في عمومه عن نظام الحياة .

وأنى أعتقد أن علمنا بالماديات والحياة بلغ الحد الذى
نستطيع معه أن نقيم هذا البناء الجديد للمعرفة، بهذا نستطيع
أن تتبين نظام المعرفة على الرغم مما يكون فى علمنا بالتفصيلات
من نقص . ثم نختار من بين المذاهب الفلسفية والدينية
ما يتفق وهذا النظام . بهذا وحده يتبين لنا وجه الحق فى
ما ليس من طبيعته أن يثبت بالبرهان العلمى .

أخطاء قديمة

قبل أن نقيم هذا البناء الجديد يجب علينا أن نهدم كثيرا من الآراء القديمة مهما تكن عزيزة على المفكرين ومهما يكن صوابها واضحا . وكثير من هذه الآراء القديمة يعد من البديهيات ، وهدمها يحتاج الى شجاعة وتحسر في التفكير ليس من السهل أن تقدم عليه ما لم نجد منها بديلا . ولا شك أن الزمن قد أضفى على الكثير من المذاهب القديمة قدسية ليس من السهل أن تتغاضى عنها . ومع ذلك فإن البدء بهذا الهدم أمر لا مفر منه إذا أردنا أن نقيم بناء جديدا للمعرفة . هذه الآراء القديمة التي نريد أن نتخلص منها كثيرة ، أهمها العلة الغائية والتفكير الثنائي وفهمنا للزمن ، وتصورتنا للحقيقة والسببية . وسنعرض لهذا تباعا .

العلة الغائية

هذا مذهب في التفكير من أوسع المذاهب ذيوعا ، وأكثرها عند المفكرين قبولا وأشبهها بالحق وأقربها الى طبيعة الانسان . وهو غالب على أكثر ميادين الفكر . ومما يدعو الى اطمئنان النفس أن تعلم أن الأمور لا تحدث عبثا

أو الى غير غاية . من هنا كان اجماع المفكرين على الأخذ به عن علم أو غير علم سواء فى ذلك من ينكرونه ومن يقولون به . وله من الاجماع عليه ما جعل الايمان به طبيعيا الى الحد الذى أصبح فيه بديهيا يقبله العقل دون أن يشعر أنه لا يعدو أن يكون فرضا .

يقوم هذا المذهب على تحديد أغراض بعينها تراد لذاتها ، وعلى أن هذه الغايات تؤدي على نحو ما الى تهيئة الأسباب التى تنتهى اليها . كأن الغاية تخلق الوسائل التى تؤدي اليها . ولم يتبين أحد كيف تعمل الغايات نفسها على خلق الوسائل المسببة لها . وعلم المفكرون هذه الصعوبة فأوجدوا لها حلولا مختلفة كلها تحاول أن تكشف عن قوة تعمل على تهيئة الأسباب لبلوغ الغايات . أما رجال الدين فرأوا أن الله بقدرته يعمل على أن يكون العالم كله وسيلة لغايات بعينها هى عندهم تمجيدته تعالى وعمل الخير ، أما علماء الانسانيات فقد فرضوا أن قوة النظم الاجتماعية هى التى تعمل على تهيئة الاسباب لبلوغ غاية هى عندهم خير المجتمع من اخلاق وفضائل . وحسب العلماء أن قوة الحياة هى التى تعمل على بلوغ غايات هى عندهم بقاء الجنس ومواءمة التركيب الجسمى للبيئة . وحسب بعض العلماء أن الوظيفة غرض وأن

هذا الغرض يعمل على أن يكون العضو مؤديا الى هذه الغاية . كأنهم يرون أن الانسان وقف منتصبا على قدمه فنغير تركيب القدم ولا يرون أن القدم تغير أولا فوقف الانسان عليه . وكل من هؤلاء المفكرين يظن أنه يختلف عن نظرائه اختلافا كليا فالفلاسفة يرون أنهم لا يتفقون وتفكير رجال الدين أو العلماء والعلماء يرون أن تفكيرهم يختلف عن تفكير كل من الفلاسفة ورجال الدين . وهم سواء في تمكن مذهب العلة الغائية منهم جميعا . ولم يختلفوا الا في القوة التي تعمل على خلق الأسباب المهيئة لبلوغ الغايات . وأكبر الملحدين من العلماء الذي يتحدث عن الطبيعة على أنها القوة المنظمة للكون . والمؤمن الذي يرى أن الله هو المنظم له . كلاهما يدين بمذهب العلة الغائية .

وكلاهما معجب أشد الأعجاب بدهشات النظام الكونى الذى لا شك فى وجوده ودقته وعظمته . وكلاهما يرى أن الغاية وضعت أولا ثم عملت قوة ما فهيات الاسباب التى تحقق هذه الغاية . وكلهم سواء فى الاعجاب والدهشة من تطابق الغايات ووسائلها . وكلهم يضعون الغاية أولا ثم يبحثون عن النظام الرائع الذى أدى الى تهيئة أسبابها : وكلهم ينسبون ذلك الى الله أو العقل أو الطبيعة اذا كانوا من

رجال الدين أو من الفلاسفة أو من العلماء . والواقع أن الفرق بين هؤلاء من حيث المذهب أقل كثيرا جدا مما يظن الناس .

نشأة هذا المذهب طبيعية ترجع الى ما بيناه من أن العقل بدأ تفكيره بأواخر الأمور وأنه بدأ التفكير بالبحث في نفسه فلم يكن هناك مناص من أن يجعل نفسه مركز العالم وغايته وأن يتصور أن كل شيء فيه انما خلق له ولمنفعته ولم يكن هناك مناص من أن يقيس الانسان كل شيء بنفسه وأن يؤمن أنه أكمل المخلوقات وأشرفها . لم يكن مناص من ذلك كله وزاد هذا الرأي قوة ما في الانسان من زهو جعله يحسب أنه هو الأصل وان كل ما عداه لم يخلق الا ليهيئ له أن يحيا حياة تنفق وأحلامه .

وإذا كان الانسان يستطيع أن يضع غايات لاعماله وأن يهيئ بعلمه وعقله الاسباب التي تؤدي الى بلوغ هذه الغايات فكيف بالقوى العليا التي لا تقاس قوته بقوتها اذا أرادت أن تبلغ غاية بعينها . وقال رجال الدين انه اذا كان لكل شيء بسيط صانع والصانع يصنع بعلمه وعقله . فمن المعقول أن يكون الله وهو تمام العقل والحكمة والعلم والقدرة قد دبر هذا النظام العجيب ليبلغ غاية أرادها . وقال رجال

الفلسفة مثل قولهم عن قوة العقل وقال العلماء مثل قولهم
عن قوة الطبيعة . ومن ذلك نشأ هذا المذهب الخلاب .

ولم يخل هذا المذهب من فوائد وخدمات آداها للمحقيقة
فهو الذى أكد وجود نظام رائع فى العالم وهو الذى أكد
العلاقة بين الغايات وأسبابها . ونشأته فى العصور الأولى من
التفكير طبيعية وهو فى الأمور البسيطة مذهب لاغبار عليه .
ففيها يستوى أن تؤدى الاسباب الى غاية أو أن تحدد الغاية
الاسباب . ولا شك أنه ساعد على ارضاء نفس الباحثين فى
أكثر الأمور . فهو حل لكل مشكلات الدين الذى هو أتم مذاهب
التفكير الشامل وأكملها . ومن خير أمثله ما نراه فى
الانجيل حين يحدث حادث لا يفهم مغزاه ولا يدرك كنهه
فتراه يفسر ذلك على أنه تحقيق لما جاء فى التنزيل . حين
يكون التفسير العقلى أو المنطقى غير واضح .

ولكن التفكير الحديث بلغ حدا أصبح فيه هذا المذهب
عقبة فى سبيل تقدمه وأصبح تطبيقه فى الأمور الكبرى وفى
النظام العام صعبا . ولعل كثيرا من المفكرين يرون الفرق
صغيرا بين أن يكون الاصل الغاية وبين أن تكون الوسائل
هى الأصل ولكن الواقع أن الفرق بينهما عند البحث فى
القوانين العالمية الكبرى فرق شاسع جدا . ونحن حين نقول

أن بقاء الجنس أصل رتب عليه حياة النمل وحين نقول أن نظام حياة النمل أدى الى بقاء الجنس يخيل الينا أن الفرق بينهما صغير ولكنه في الواقع جوهرى من حيث المذهب . ولو كان بقاء الجنس أصلا لأمكن تحقيقه بوسائل أبسط كثيرا مما نراه في حياة الحيوان .

وعندنا أن هذا المذهب يجب أن يعدل عنه تماما جملة وتفصيلا . وأن نروض العقل على أن لا يلجأ اليه أبدا فهو من ناحية المنطق خلط ومن ناحية الفلسفة عقيم ومن ناحية العلم خطأ ومن ناحية المستقبل الفكرى عقبة فى سبيل فهم الكون فهما عقليا كاملا .

أما أنه خلط فى المنطق فهذا أمر واضح لأنه يقوم على اتخاذ التوافق بين أمرين دليلا على أنهما خلقا ليتوافقا وعلى أن أكثرهما تعقيدا خلق فى أبسطهما الصفات التى توافقه . هذا خلط منطقي لا شك فيه . والأمثلة على ذلك كثيرة . فالحيوان مثلا اذا حرم البلع وأعطى غذاء لا هواء فيه ضمرت أمعاؤه حتى يموت . فالهواء ضرورى لوظيفة الامعاء ولكن القول بأن الهواء خلق لينظم وظيفة الامعاء خلط فى المنطق . وليس من المعقول أن تكون هناك غاية واحدة أدت الى صفات الهواء لأن لهذه الصفات أثرا فى بلوغ غايات كثيرة لا يمكن

أن تكون كلها عملت على خلق هذه الصفات في الهواء كل
فيما يخصه . ثم أن صفات الهواء بسيطة لا يمكن أن
تتوافق والغايات البعيدة المعقدة المختلفة لو أن هذه كانت
عاملا في تحديدها . بل المعقول أن تكون صفات الهواء
الخاصة هي التي أدت الى التأثير في تحديد الغايات المختلفة.
بهذا يستقيم المنطق . والعلماء يثيرون أعجابنا حين يبينون أن
لون بعض الحيوانات يتغير اتقاء لخطر الاعتداء عليها وأنها
بذلك تخفى على أعين صائديها . على أنه قد ثبت أن ذلك
غير صحيح وهو على كل حال قول واضح البطلان منطقيا حتى
قبل أن يتبين خطؤه لأن غير هذه الحيوانات مما هو أضعف
وأكثر حاجة الى الاختفاء لا يغير لونه . فهذا مثل من الخلط
في المنطق واضح .

ثم هو من الناحية الفلسفية عقيم لأنه يضع للمعرفة حدا
لا تتعداه هو هذه الغايات . ويجعل البحث مقصورا على
ما دون ذلك . على حين أن البدء بالأمر الأولي ثم التدرج
الى الغايات يجعل المعرفة أمرا لا حد له . وقد أدى مذهب
العله الغائية الى عجز تام في الفلسفة الدينية عن تفسير وجود
الشر وفي الفلسفة عن تفسير وجود الفساد وفي العلم عن
تفسير وجود الأنواع وتعددتها .

أما أن مذهب العلة الغائية خطأ من الناحية العلمية فواضح من أن احدا لم يستطع حتى الآن أن يبين الكيفية التي تستطيع بها غاية ما أن تخلق الوسائل التي تؤدي إليها . والتجارب العلمية تكون دائما الجمع بين أسباب تؤدي الى غاية ولم يحدث أن وجد العلماء غاية تؤدي الى أسبابها . فاذا قيل أن ذلك يكون بالمشاهدة والتفكير لا بالتجربة فان المشاهدة تحتمل تفسيرات عدة ليس المذهب الغائي أصدقها وأن يكن أسهلها على الباحث وأبسطها فهما وأقلها مشقة في التفكير .

وأما أنه عقبة في سبيل فهم الكون فهما عقليا تاما فذلك واضح لأنه أصبح حجر عثرة في سبيل الوحدة في التفكير لأن الغاية التي تفسر العالم كله بما فيه من تفاصيل متعددة لم تعرف بعد . وقد أخفقت كل محاولة لتحديدها ، وهذا المذهب يرغم الفكر على أن يسير في طريق مغلقة لا مخرج له منها ويجعل المفكرين يلجأون الى أنواع من الفسروض تزداد تعقيدا وأضطرابا كلما أرادوا تفسيراً لحادث جديد ، ويذكرونا ذلك بالفلك البطليمي حيث فرض لكل كوكب دائرة فلما تبين أن ذلك لا يفسر الحقيقة الواقعة خلقوا دوائر من فوقها دوائر ، كلما ظهرت ظاهرة جديدة أضافوا دوائر جديدة .

الواقع أن الفرض الذى يقول بوجود غايات محددة للعالم وقوانينه ، وأن هذه الغايات أدت الى النظام الحالى قد أصبح العقبة الوحيدة التى تمنع التفكير الحديث أن يبلغ العقلية المطلقة . وهو لا يتفق مع ما بلغ العلم والفكر من تقدم . ولا مفر لنا اذا أردنا أستقامة تفكيرنا أن نستبدل به تفكير آخر لا يكون فى مقدماته أن هناك أغراضا بعينها أريد لها أن تتحقق .

قيل فى نظرية النسبية أن مؤلفها بعد أن أصبحت جلية أمامه وجد أن هناك عقبة تقف أمامها وهى اللانهاية فتغلب على هذه العقبة حين أدرك انها عقبة وهمية اذ ليست هناك لانهاية . كذلك التفكير الحديث لا يعوقه الا عقبة التوفيق بين النظام الذى كشفه وبين الغايات التى وضعناها للعالم افتراضا محضا . وهى عقبة وهمية . اذ ليس للعالم غايات خلقت القوانين الكونية من أجل تحقيقها .

انما يقوم نظام الكون على سلسلة من القوانين أولها بسيط ثم تزداد تعقيدا حتى تبلغ التعقيد الذى نراه فى الانسان وسر النظام الذى نراه فيه وسر التوافق بين الأسباب والغايات يرجع الى أن هذه القوانين تؤدي بطبيعتها الى هذه الغايات .

المذهب الذي ندعو اليه يرى أن هناك قوانين ، وأن بين هذه القوانين أفضليات ، وأن أفضلها ما كان أكثر تعقيدا ، وأن نظامها يؤدي إلى الغايات وليست الغايات سببا في هذا النظام . فهو يرى مثلا أن الخير ليس غاية أريدت للعالم ثم تهيأ كل ما في الكون لبلوغه . والا لكان الشر محالا . والله تعالى في كمال علمه وقدرته قادر على أن يهيئ أسباب الخير كلها فلا يكون هناك شر . انما وضع الله للكون نظاما محكما ينتهي إلى غايات لا مفر منها . وهذه الغايات بطبيعة تكوين هذا النظام فيها الخير والشر . وسنرى أن ذلك يكون أسهل فهما حين تتبين فيما بعد أن الخير والشر ليسا قهضين بل قد يكونان درجتين لشيء واحد كما أن الحرارة والبرودة لم يعودا شيئين متناقضين في الطبيعة الحديثة بل هما درجتان لشيء واحد .

وليس بقاء الجنس أو مطابقة العضو لوظيفته غايات نشأ عنها ما نراه من صفات الكائنات الحية . وانما كانت قوانين الحياة وقدرتها على التكيف والمرونة والمقاومة هي التي أدت إلى بقاء الجنس . والذين يقولون أن وظيفة العضو تخلق ما في تركيبه من صفات يخطئون خطأ بالغا . مثلهم مثل من يرى أن بصمات الأصابع — وهي ذات فائدة كبرى في تعيين الأفراد — خلقت لتسهل على رجال الشرطة تتبع

المجرمين . أو من يقول أن العظم اللامي خلق ليبدل على جريمة الخنق . هذه أمثلة صارخة واضحة البطلان ولكنها لا تختلف في طبيعتها عن القول بأن وظيفة العضو أريدت أولاً ثم ركب لبلوغ هذه الغاية . وقد قضى علم الأجنة والتشريح المقارن على هذه الآراء قضاء تاماً . إنما يكون تركيب العضو خاضعاً لقوانين بيولوجية خاصة ثم تتحدد وظيفته من أثر هذا التركيب .

التفكير الثنائي

ما زال التفكير الثنائي أصلاً من أصول المذاهب الفكرية منذ كان التفكير . وهو محور الكثير من التنظيم والتبويب والتقسيم في أكثر نواحي المعرفة . فقديمًا قسم الطبيعيون الأشياء إلى حار وبارد ورطب ويابس ، وتحدث الفلاسفة عن الخطأ والصواب على أنهما نقيضان ، ورجال الدين يتحدثون الحديث نفسه عن الخير والشر ، ولا يكاد يخلو مذهب من المذاهب من أثر هذا التفكير الثنائي . والعقل يطمئن إلى مثل هذا التقسيم ظناً منه أنه تقسيم يلم بكل شيء فالشيء إما متحرك أو ساكن وإما رطب أو يابس وإما حار أو بارد . وأكثر مذاهب التقسيم تقوم على هذه المقابلة بين صفتين متقابلتين .

هذا تفكير طبيعي أصله أن الانسان جعل نفسه مركز العالم ثم وضع الاشياء كلها عن يمينه أو يساره ،وأصبح الانسان يقيس الأمور بنفسه ويرتبها ترتيبا هو محوره . فالبارد هو ما يشعر ببرودته والحر هو ما يشعر بحرارته ، والخير هو ما يعود عليه بالخير والشر هو ما يعود عليه بالشر . مثل ذلك مثل علم الفلك حين كان علماءه يعتقدون أن الأرض مركز العالم وأنه كله يدور حولها . فكان هذا علما بدائيا لا يبلغ به الانسان من العلم الحق شيئا .

وليس في أخطاء التفكير خطأ أشد ضرا من تبويب الاشياء تبويبا قائما على أمور عارضة لا أساس لها من طبيعة الاشياء فهو يؤدي الى التقريب بين أمور بعيدة كل البعد ،ويباعد ما بين أمور قريبة جدا . والفهم الحق لطبيعة الاشياء يقضى على مثل هذه التنظيمات التي تقوم على المقابلة بين صفات فيها عارضة . واذا كان الفلك لم يصبح علما حقا الا يوم خلاص من الرأى القائل بأن الأرض مركز العالم ، فان التفكير لن يستقيم حتى نخلص من اعتبار الانسان مقياسا تقاس به الأمور وحتى نقلع عن تنظيم الأشياء تنظيما يقوم على علاقتها بالانسان .

وقد ثبت في العلوم الطبيعية أن التفكير الثنائي لاحقيقة

له . والأمثلة على ذلك كثيرة . فالحرارة والبرودة – ومقياسهما الانسان – أصبحت درجات مختلفة من سرعة حركة الجزيئات في الجسم . وأصبحت تقاس هذه السرعة دون الرجوع الى ما يحسه الانسان . تبدأ الحرارة من 273° تحت الصفر وترتفع حتى تبلغ آلاف الدرجات . وليس لدرجة حرارة الانسان وهي 37° مغزى علمي خاص يجعل التقسيم القائم عليها ذا قيمة علمية . وعلى ذلك لا تكون هناك حرارة تناقض البرودة ولا برودة تناقض الحرارة ويكون كل بحث قائم على هذا التقسيم خطأ .

وقد شغلت الألوان مكانا هاما في تفكير الفلاسفة زمنا طويلا ، واتخذوها مثلا على الصفات عموما . وقام جدل كثير حول حقيقة اللون . هل الأحمر أحمر لأننا نراه كذلك . وهل الحمرة توجد اذا لم توجد العين التي تراها . وقد ثبت أن اللون موجة ذات طول خاص يمكن قياسه بغير العين ، وأن العين ليست الا جهازا يتأثر بالامواج المختلفة على نحو يميز ما بين الأطوال المختلفة ، وأنها ليست أدق الأجهزة لهذا التمييز .

وفي الكيمياء قسم القدماء الأشياء الى حمضية وقلوية ثم ثبت أن هذه الصفات ترجع الى تركيز ايونات الايدروجين

وهو أمر متصل لا داعى لتقسيمه قسمين متعارضين ،
والتركيز اللازم لتحويل لون عباد الشمس لا يعد حدا
فاصلا بين أمرين متقابلين هما الحمضى والقلوى . وهكذا
أصبحت درجة الحموضة تقاس رياضيا بقياس هذا التركيز
وأصبح هذا التقسيم غير ذى شأن .

من هذا يتبين أنه عندما تعرف حقيقة الاشياء وقوانينها
تزول بذلك أكثر مظاهر التفكير الشئى . هذا واضح فى
العلوم . ولكن الأمر فى الفلسفة والدين أكثر تعقيدا وأن
تكن هناك دلائل على أن التفكير الشئى فيهما لن يلبث أن يقضى
عليه متى عرفت طبيعة الخطأ والصواب وطبيعة الخير والشر .

وقديما ظن الفلاسفة أن الأمر الواحد لا يكون خطأ
وصوابا فى وقت واحد . ثم تبين أن حقيقة بعينها ثابتة
البرهان فى مجال بعينه قد لا تكون صوابا فى مجال آخر .
فتكون صوابا وخطأ فى وقت واحد . وخير الامثلة على ذلك
الجاذبية . فهى صواب من غير شك فى الأمور التى تخضع
لها عادة . وحسابها مطرد . ونتائجها ثابتة بما لا يدع مجالا
للشك فيها . ولكنها فى مجال آخر لا تعد حقيقة .
وعلى ذلك لا يكون الخطأ والصواب أمرين متناقضين . واذا
فهمنا النظام العقلى والكونى فهما حقا فقد يصبح من الممكن

أن تقيس الخطأ والصواب كما تقاس الحرارة والبرودة
ويكونان بذلك درجات مختلفة لشيء واحد .

أما الخير والشر فلا تزال النفس الانسانية ترى فيهما
أمرين متناقضين . على أن القياس يدل على انها أمران
يشبهان الحرارة والبرودة . فهما متناقضان ما دام البحث
يتعلق بالانسان ولكنهما من حيث انها حقيقة كونية قد
لا يكونان الا درجات لشيء واحد سنعرفه عندما يتم علمنا
بالنفس وقد نبلغ من ذلك حد قياس الخير والشر على انها
درجات مختلفة لتأثير واحد على النفس البشرية .

وعلى كل حال يمكن القول بأن التفكير الثنائي ظاهرة
طبيعية في أول عهود التفكير . وأنه يقضى عليه يوم تفهم
حقيقة الاشياء فهما حقا يجعلها مستقلة عن الانسان ، وحين
يوجد من الأجهزة ما تقاس به صفات الأشياء مستقلة عن
الأجهزة الطبيعية الكائنة في حواسنا الخمس . فالعين جهاز
لقياس موجات الضوء ، والأذن جهاز لقياس سرعة ذبذبة
الهواء ، والذوق جهاز لقياس تركيز ايونات الايدروجين
والجلد جهاز لقياس سرعة ذبذبة الجزيئات . وفي كل حالة
توجد أجهزة أدق وأوسع مدى .

التفكير الحديث يجب أن لا يتقيد بهذا التفكير الثنائى
الذى استقر فى طبيعة الانسان ، واشتد أثره حتى نشأت عنه
المقابلة بين الروح والجسد والماديات والمعنويات على أنها
أمور متناقضة مختلفة كل الاختلاف . ولا مفر من التخلص
من كل ذلك اذا أردنا أن نجعل المعرفة شيئاً متصلاً مستقيماً .

الزمن

بيننا فيما سبق بعض العوامل التي تؤدي الى كثير من الخطأ في التفكير . وهناك عامل آخر أدى الى تشويه خاص في علمنا كله . ذلك هو عجز الانسان عن ادراك حقيقة الزمن وطبيعته ادراكا مباشرا . بل أن هذا العجز من شأنه أن جعل للمعرفة حدا لن تستطيع أن تتعداه .

الزمن حقيقة لا ريب فيها ، ولكنه أكثر الأمور غموضا على العقل . وذلك لأن الانسان ليس له احساس خاص يدرك به الزمن ادراكا مباشرا . وانما ندركه بأثره في الأشياء ، ونقيسه بما يحدث في الأشياء من آثار . نقيسه بحركة نجم أو بتنوع بندول . ولو أن الاشياء كانت ساكنة سكونا تاما ما استطاع الانسان أن يدرك الزمن أو يقيسه أو يعرف له وجودا .

كنه الزمن غامض كل الغموض ، ولن نستطيع أن نتصوره مجردا عن الاشياء . انما تفهمه في الواقع بتقدير أثره في الأشياء أو أثر الأشياء فيه . أما فهمه مجردا فلم يستطعه الانسان بعد ، ولا أحسبه يستطيعه في المستقبل . ولا أعنى

بالزمن هنا الزمن الكونى الرياضى الذى يعده الطبيعيون البعد الرابع ، ولا الزمن الفيزيائى الذى يقيس به الرياضيون سرعة جسم ساقط فى أى نقطة من سقوطه . وانما أعنى على التحديد الزمن التاريخى الذى نعرفه بتتابع الحوادث فيه .

وأوجه الخطأ التى أحدثتها هذا العجز فى العقل الانسانى كثيرة . منها تصورنا الزمن على أنه خط مستقيم له أول وله آخر ، واتخاذنا اياه مقياسا لأشياء لا شأن له بها ، واقحامنا اياه فى مجالات لا تخضع له ، ثم أن هناك التشويه الخاص للمعرفة الذى يعرض لنا من جراء تصور الكون ذا أبعاد ثلاثة وادماجنا للبعد الرابع (الزمن) فى هذه الابعاد الثلاثة .

ونحن حين نقول أن الزمن له أول وله آخر انما نقرر فى الواقع أن الحوادث المتتابعة هى التى لها أول ولها آخر . ولا يصلح هذا وصفا للزمن نفسه . ونحن حين نقيس بالزمن أشياء لا شأن لها به ولا شأن له بها نرتكب خطأ عقليا عظيما . مثال ذلك ما دأب عليه علماء البيولوجيا من اعتبار التطور فى الكائنات الحية عملا زمنيا . وقد حسبوا أن أبسط الكائنات تركيبا يجب أن يكون أولها ظهورا ، وأن الكائنات العليا هى آخر الكائنات ظهورا . هذا فرض لا دليل عليه . فالتطور زيادة مطردة فى التعقيد التركيبى للكائنات وليس

من الضروري أن تقيس هذا التعقيد قياساً زمنياً . بل أن من الخطأ العقلي أن تتصور الزمن على أنه من عوامل التطور . ولعل التطور عملية تركيبية خاصة بما ركب في الكائنات الحية من صفات . وليس لنا أن نجعل للزمن شأناً فيه . ثم اتنا تقحم الزمن في أمور لا تخضع له . مثال ذلك ما حاوله العلماء من تحديد عمر الكون تحديداً زمنياً . هذا خطأ عقلي يقوم على فرض أن الكون خاضع لقانون الزمن التاريخي . وهو فرض لا دليل عليه . بل لعل الحديث عن عمر الكون لا يعدو أن يكون كالحديث عن شجاعة الصخر أو أمانة البحر أو إيمان النملة . ذلك أن كل شيء في الكون له مجموعة من القوانين يخضع لها ولا يخضع لغيرها . فالذرة تخضع في داخلها لقوانينها ولا تخضع في تركيبها لقوانين الكيمياء أو الفيزياء . والجزيئات تخضع في تركيبها لقوانين الكيمياء ولا تخضع للقوانين الفيزيائية كالجاذبية مثلاً . كذلك الأرض فهي لا تخضع من حيث هي جسم يدور في الفضاء لغير قانون الجاذبية . وقد لا تكون المجموعة الشمسية خاضعة لما تخضع له الأرض . ويكاد يكون من المؤكد أن الكون كله لا يخضع لقانون ما . وليس للزمن عليه أثر ، والحديث عن عمره خطأ عقلي واضح .

أما تشويه المعرفة الناشئ عن عجزنا عن ادراك أربعة

أبعاد فهو تشويه من نوع خاص . ذلك اننا اذا فرضنا أن النملة لا تستطيع أن تدرك الا بعدين اثنين هما الطول والعرض . فان هذه النملة مهما يكن علمها بسطح الكرة كاملا ، ومهما يكن من كشفها لكل ما على هذا السطح من أشياء لا تستطيع أن تتصور الكرة على حقيقتها . فالكرة عندها سطح لانهاى غير محدود . وهى لن تدرك حدود الكرة وحقيقتها الا اذا أدركت البعد الثالث . كذلك الانسان يدرك الأبعاد الثلاثة ادراكا مباشرا ، ولا يدرك البعد الرابع الا تقديرا ولا مفراة من ادماج هذا البعد الرابع فى الأبعاد الثلاثة على نحو ما . واذا كان الكون ذا أبعاد أربعة فالانسان لا يستطيع أن يعرفه الا كما تعرف النملة سطح الكرة ، شيئا لانهاى غير محدود . هذا التصوير يؤدي حتما الى تشويه فى المعرفة لا مناص منه . وهو يشبه التشويه الذى يحدث فى خرائط الكرة الأرضية حين ترسم على سطح مستو . هذه الخرائط لها أوجه كثيرة من الحق وفيها حقائق كثيرة . ولكنها مشوهة تشويها يجعل الاسكا مثلا أبعد ما تكون عن سيبيريا وهى فى الواقع أقرب ما تكون اليها .

من هذا يتبين أن للمعرفة الانسانية حدا يتعلق بالأبعاد التى يدركها الانسان ادراكا مباشرا والتى لا يدركها الا تقديرا . ثم أنه فى علمه بما يدركه تقديرا مضطر الى الخضوع

لنوع خاص من التشويه لا مفر منه ولا يمنع ذلك من أن تكون صورة الكون في العقل الانساني صورة دالة على كثير من الحقائق الصحيحة .

الحقيقة

لم يقدر الانسان عظم ما أقدم عليه حين بدأ بحثه عن الحقيقة ، ولم يقدر الصعاب التي تعترض تقريره أن قضية ما هي حقيقة . ولم يتبين ما في أكثر فروضه من خطأ أصلي يجعل التماذى فى الاستنتاجات القائمة عليها عبثا . ولم يدرك أن اختلاف الحقيقة فى مذاهب التفكير المختلفة يثير الشك فيها كلها — مهما يكن من صوابها فى بعض وجوهها .

الحقيقة فى التفكير الدينى هى ما أنزل الله على عباده وما هداهم اليه . وهو فرض عظيم . له من شموله وفوته وكما له ما ينزع سلاح معارضييه . وهو أكثر المذاهب استقرارا ، وأقدرها على تفسير كل ما يعرض للانسان من صعوبات . وليس فى ثناياه ضعف يمكن أن ينفذ اليه منه النقد . ولذلك قبله الناس كافة فى عهود من التفكير كان فيها وحده موضع الثقة . ولكن هذا الكمال نفسه خلق فيه هنات لم تلبث أن ظهرت لدى المفكرين . وقد حملت هذه الهنات الكثيرين على الشك فى الحقيقة كما يصورها الدين فانكروها

كلها على ما يكون فيها من صواب . وأكبر هذه الهنات أن التفكير الدينى لم يستطع تعيين صفات الذات العلية العليمة القديرة الا بما هو انساني، وأنه لا يعبا بتفاصيل النظام الكونى ولم يفسرها ، وأنه لم يبين لم احتاج تمجيد الله الى هذا التعقيد البالغ فى الكون وكان يصح أن يتحقق بما هو أبسط وأوضح . والحقيقة عندهم تنحصر فى ارادة الله ثم حدثوا ارادته بما اراده سبحانه فعلا . هذا كله دفع الناس الى التماس الحقيقة فى نظام آخر أقرب الى الفهم والتنظيم العقلى . وأن يكن أقل كمالا وعظمة .

ثم حمل لواء هذا البحث الفلاسفة ولكن عدتهم فى ذلك كانت أضعف وأكثر قصورا . ذلك أنهم حسبوا الحقيقة شيئا محددًا يحجبه عنا نقص علمنا ، وضعف جهاز العقل الذى نبحث به عنها . وخيل اليهم أننا اذا زاد علمنا وتحسن جهاز التفكير عندنا فانا نبلغ الحقيقة العليا التى اذا بلغناها تكشفت لنا أسرار الكون فتقرأها عند ذلك كأنها كتاب مفتوح . فالحقيقة عندهم غاية يبلغونها بالتفكير يصدر عنها بعد ذلك كل ما هو صواب . هذا أثر من آثار التفكير الذى يبدأ بأواخر الأمور والمعقد منها ولم يخلص التفكير الفلسفى من هذا العيب حتى بعد أن بدأت نظرية التحليل الديكارتى . فهى أيضا تبدأ بالمعقدات وتخرج منها الى ما هو أبسط وهو

خطأ أصلى فى هذه المذاهب أدى الى زيادة فى غموض الحقيقة وبعدها عنها .

الواقع أنه ليست هناك حقيقة بهذا المعنى . وليس اخفاقنا فى بلوغها راجعا الى نقص فى جهاز البحث عنها ، وانما يرجع ذلك الى عدم وجود هذا النوع من الحقيقة . وليس التحليل وسيلة لبلوغ الحقيقة وأن يكن وسيلة ناجحة فى بلوغ الحقائق الصغيرة التفصيلية .

التفكير الفلسفى جعل الانسانيات مفتاح الحقيقة وهى لا تصلح لذلك ، وجعل الانسانيات أصلا يبنى عليه نظام الكون . وهو خطأ . ولا بد لنا أن نضع الانسان موضعه الطبيعى من المخلوقات اذا أردنا أن نستقيم لنا فهم الحقيقة على النحو الحديث . الحقيقة ليست غاية محددة وانما هى معرفة علاقة شىء بآخر ، وعلاقتها بغيرها من الأشياء . على أن تكون هذه العلاقات صالحة لتفسير كل ما هو مشابه لما هى بصده . وقد يكون هذا الفهم للحقيقة متواضعا ، ولكنه وحده يؤدى الى الالمام بالصورة الكاملة للقوانين الكونية .

وأضعف ما فى البحث عن الحقيقة عند الفلاسفة التعاريف والحدود . ومن أوضح الأمور أن التعاريف أمر

غير ثابت . فإذا قيل أن ا هوب فأما أن يكون هو هو وتكون الجملة عبثا . وأما أن يكون ا مشابها ل ب في بعض الأمور التي تفهم في التعريف . عند ذلك يجب أن يتحدد مدى النقص في ب الذي لا يؤثر في كونه ا . ولنفرض لذلك أبسط الأمثلة . قولك هذا فنجان . ان كان هذا القول قائما على الشكل فأشكال الفناجين كثيرة ، وان كان قائما على المادة التي صنع منها فهناك عدد لا يحصى من المواد تصنع منها الفناجين . وان قررت ذلك لما يستعمل له فليس هذا دليلا على أنه فنجان لان استعماله لشرب القهوة مثلا يقوم على معرفة الانسان أنه فنجان . الواقع أن هذا الشيء الذي أمامك له صفات كثيرة عددها مثلا س . منها عدد معين لا بد أن يتحقق قبل أن تقرر أنه فنجان . ولكن هذه الصفات ونسبتها عددا ونوعا لمجموع صفات هذا الشيء تختلف من فنجان لآخر .

هذه الصعوبة قائمة في كل تعريف مهما يكن الشيء بسيطا . ويزداد الأمر تعقيدا حين يكون الشيء المعرف ذا صفات كثيرة جدا وقولك هذا كلب يعد معادلة رياضية صعبة البرهان الى أقصى حد . واذا كان كل طفل يعلم أن هذا كلب فإن البرهان عليه منطقيا من أصعب الأمور . فالكلاب تختلف شكلا وحجما ولونا وهيئة وطبعا . فأى نسبة من صفات الكلب تكفى لتقرير هذه الحقيقة البسيطة نوعا ؟ .

أما قولك الاقدام قتال فهو تقرير لا يكاد يكون من الممكن اثباته . اذ هو معادلة تكاملية وليس الاقدام قتالاً دائماً وليس الاقدام أمراً محددًا . ومع ذلك فالعبارة فيها كثير من الصواب . من هذا يتبين ما فى القضايا الفلسفية من خطأ أصلى ينشأ من التعاريف وكلما زاد علمنا بحقيقة شئ من الاشياء قلت عنايتنا بالتعاريف . ونحن حين نعرف العلاقة بين الماء والجسم الذى يطفو فيه يقل اهتمامنا بتعريف الماء والجسم والطفو . وحين نعرف كيف تفلق الذرة تقل عنايتنا بتعريف الذرة وما هى وهل تكون ذرة اذا كان يمكن تجزيئها . الى غير ذلك من البحوث العزيزة على الفلاسفة .

اما الكليات فأمرها أبعد عن قبول البراهين من التعاريف . لأن التعاريف معادلات يمكن ضبطها رياضياً مهما يكن تعقيدها اما الكليات فانها تقوم على برهان واحد هو مطابقتها للمعقول . واذا كانت تصلح لتوضيح نظام العقل فهى لا تصلح لفهم طبيعة الأشياء . ومن أبسط الكليات الفلسفية استحالة اجتماع النقيضين كالحرارة والبرودة . ولكن اذا تبين أن الحرارة والبرودة درجات لشئ واحد هو حركة جزئيات جسم بعينه فلا يكون بينهما تناقض . وليس هناك كلية لا تقوم على تعريف لفظى ، وليست لاحداها قدرة على تحديد العلاقة بين شيئين . وهى لا تمهد السبيل لمعرفة

علاقة حقيقية عند البحث في القوانين الكونية . اما اذا عرفت هذه القوانين معرفة تامة فان الكليات تصبح عديمة القيمة في البحث عن الحقيقة .

اما الحقيقة عند العلماء فهي علاقة محددة بين شيئين . ويكاد يكون هذا طريق الصواب الى تحديد الحقيقة الكاملة ولكن فيها ضعفا أصليا هو تحديد العلاقة المعروفة بالسببية . فاذا كان قولك هذا فنجان أمرا لا يصعب البرهان عليه ، وقولك أن اجتماع النقيضين محال قولا ضعيفا عند البحث عن الحقيقة فان قول العلماء هذا سبب ذلك قضية معقدة الى أقصى حد والبرهان عليها من أصعب ما يعرض للعقل .

تقوم السببية في أذهان الكثيرين على وجود علاقة بين شيئين يتتابعان زمنا أو يتفقان مكانا . ونحن نهزأ بالبدايين الذين يعتقدون أن احداث حياتهم ترجع الى أسباب نجمية أو كونية . والواقع أن لهم في ذلك عذرا . فأكثر احداث النجوم دورية ، وكثير من احداث الحياة دورية ، وليس من الصعب أن تتوافق الدورتان فيكثر وقوع حوادث بعينها في وقت واحد وحوادث النجوم . من هنا تنشأ السببية . على أن أحدث النظريات العلمية فيها فروض تشبه ذلك فالعالم الذي يرى في حالات التيفود ميكروبا خاصا نراه يعد الميكروب سببا في المرض . وقد يكون السبب الحقيقي أن

هذا الميكروب تخرج منه مادة كيميائية تتحد مع مادة أخرى في خلية بعينها في الأمعاء فتعطلها عن عملها . وقد تكون هناك وسيلة أخرى لوجود هذه المادة غير طريق الميكروب ، وقد يوجد الميكروب ومادته الكيميائية ولا تكون في الخلية المادة التي تتحد معها فلا يقوم المرض .

السببية علاقة بين شيئين ولكنها من أنواع كثيرة . ولكل سبب سبب أعمق منه . فاذا قيل أن رجلا مات من ذات الرئة فلا يمنع هذا السبب أن يكون سبب الموت تقصا في الأوكسيجين في خلايا القلب أو المخ . كلاهما سبب وقد تكون هناك تفسيرات أعمق من ذلك كله . وقولنا أن الوردة ازدهرت لسبب حلول فصل الربيع يعد صوابا . ولكن الأسباب العميقة كثيرة جدا كيميائية وطبيعية وحيوية وكلها يعد سببا . وهناك الأسباب الاحصائية . وهي أشد أنواع السببية تعرضا للخطأ . وليس من الصعب أن نجد علاقة احصائية بين عدد الكلاب التي تموت في طوكيو وعدد الوزارات التي تسقط في فرنسا وليس من المعقول أن تكون هذه العلاقة برهانا على السببية . ومع ذلك فكثير من الحقائق العلمية القائمة على الاحصاء لا تختلف كثيرا عن هذا المثال .

وعندي أن السببية يجب أن تكون مباشرة أو ملاصقة . فاذا قيل أن سبب طول فلان أن أباه كان طويلا . وأن الوراثة

سبب فهذا نوع من السببية غير المباشرة يفتقر الى معرفة خطوات هذا التشابه . انما يجعل هذه العلاقة مقبولة الى حد ما أن نقول أن الطول يرجع الى عدد مرات انقسام خلايا النمو العظمية . وأنها في ذلك تخضع لظروف داخلية وخارجية تشابه في الأب والابن . هذا طريق أقرب الى معرفة حقيقة الواقع من قولنا أن الوراثة سبب التشابه .

الحقيقة في الواقع يجب أن تكون متواضعة جدا ، مقصورة على تحديد علاقات الأشياء بعضها ببعض ، حتى اذا كثرت هذه العلاقات الى الحد الذي يجعلنا نعلم جميع العلاقات بين جميع الاشياء أصبحت المعرفة بالحقيقة كاملة.

البناء الجديد للمعرفة

يقوم البناء الذي أقترحه للمعرفة على نظرية تفاضل القوانين (هيرارشية القوانين) . وهي نظرية لم تفرض فرضا لتفسير ما نعلم من حقائق . ولو كانت مجرد فرض لكانت بذلك واحدة من النظريات الفلسفية العديدة التي تحتمل الخطأ والصواب . وانما هي نظرية مستمدة من القوانين الطبيعية التي ثبت صدقها ، والتي دليل صوابها مطابقتها للواقع ، وبرهان ثبوتها امكان حساب نتائجها رياضيا والتي لا استثناء فيها . ونظرية تفاضل القوانين تتدرج بهذه القوانين صعودا ، وتطبق نظام التفاضل الثابت في القوانين البسيطة على ما هو أرقى منها حيث تكون المطابقة بينها وبين الواقع أمرا أشد غموضا وأعسر فهما . بهذا التدرج القائم على تفاضل القوانين المادية نستطيع أن نصل في تصاعد مستمر على النهج نفسه من البروتون الى الانسان ، ومن الالكترودن الى العقل ، ومن المادة الى المعنويات السامية والأخلاق ، ومن نظام الذرة الى الجمال ، ومن النور الى الله . في نظام متسق من أوله الى آخره وهذا النظام فيه فجوات عدة بعضها عريض ولكنها لا تحجب النظام العام اذا عرفت قاعدته وزواياه .

ومسنداً بذكر القواعد التي تقوم عليها نظرية تفاضل القوانين، وملخص النظام العام القائم عليها. ثم نشرح ذلك تفصيلاً، ثم نعرض لمشكلات المعرفة التي لم نعرف لها حلاً حتى الآن لنرى كيف تساعد هذه النظرية على حل هذه المشكلات.

تفاضل القوانين

هذه النظرية تقوم على عدة قواعد:

القاعدة الأولى: الأشياء وقوانينها شيء واحد، لا وجود لأحدها بدون الآخر. الأشياء هي تجسم القوانين، والقوانين هي التي توجد الأشياء.

القاعدة الثانية: إذا كان قانونان لا يعمل أحدهما إلا فيما سبق أن عمل فيه الآخر كان أولهما أعلى من الثاني. القوانين الأعلى أكثر تعقيداً من الأدنى.

القاعدة الثالثة: القانون الأعلى لا يتعدى عمله الأشياء التي هو مهياً لها، ولا أثر له في تغيير عمل القانون الأدنى.

القاعدة الرابعة: يعمل القانون الأعلى في «تاريخ حياة» ما هو أدنى منه دون أن يغير من قوانين هذا الذي هو أدنى. وهذا الأثر الذي يحدثه القانون الأعلى في حياة ما هو أدنى هو القضاء والقدر.

القاعدة الخامسة : يستطيع الشيء الأدنى أن يعرف وجود ما هو أعلى ، ولكنه لا يعرف من صفاته وخواصه الا ما يتعلق بقانونه الأدنى ،ومن المستحيل عليه أن يعرف كنه ما هو أعلى منه من القوانين والأشياء .

القاعدة السادسة : فى كل طبقة من القوانين وبين الطبقات المختلفة تدرج يجعلها منظمة تنظيما تكون فيه الأشياء والقوانين الدنيا أعم وأبسط وأثبت من العليا التى تزداد فى رقيها تخصيصا وتعقيدا وقلقا .

القاعدة السابعة : كل شيء وقانون ينظر الى ما هو أعلى منه على أنه اله قادر قاهر لا يسأل عما يفعل ،ولا تفهم حكمته التى لا يمكن أستنتاجها طبيعيا من قوانين هذا الذى هو أدنى .

ملخص النظام العام القائم على نظرية « هيرارشية »

القوانين .

١ - فى الأصل (وهو تعبير تركيبى يختلف تماما عن قولنا « فى الأول » فهذا تعبير زمنى) كان هناك شيء واحد متناه فى الصغر له خاصية واحدة هى القدرة على الاتحاد مع أشباهه على نسب مختلفة فكان البروتون والالكترون . ولم يثبت هذا بعد . ولكن ما أثبتته نظام الذرة يجعل هذا

الفرض مقبولا . اذ هو امتداد ذلك النظام الى ما هو أدنى من عناصر الذرة المعروفة اليوم . وسيثبت ذلك حين نستطيع تفجير البروتون والالكترون الى عناصرهما . ولعل الفوتون هو هذا الشيء الموحد انذى كان فى الأصل . ولعل أول قانون خضع له هو قانون المغناطيسية الكهربية .

٢ - استمرت قوة الاتحاد هذه مع الأشباه وغير الاشباه بين الالكترونات والبروتونات فكانت الذرة التى هى نتيجة القوانين الذرية وسبب وجود القوانين الكيميائية .

٢ - استمرت قوة الاتحاد هذه مع الأشباه وغير الأشباه بين الذرات فكان الجزئى الذى هو نتيجة القوانين الكيميائية وسبب وجود القوانين الفيزيائية .

٣ - كل اتحاد تم فى طبقة من هذه الطبقات كان نتيجة لقوانين هو دليلها ومجسمها ويخرج من هذا الاتحاد شىء جديد يخلق طبقة جديدة من القوانين لم يكن لها وجود من قبل .

٤ - من هذا يتبين أن القوانين المغناطيسية الكهربية أدنى من قوانين الذرة ، وهذه أدنى من قوانين الكيمياء وهذه أدنى من قوانين الفيزياء . والسبب فى اعتبارها أدنى أن الأعلى من بينها لا يعمل الا فيما سبق أن عمل فيه الأدنى فالفيزياء لا تعمل الا فيما سبق أن عملت فيه الكيمياء .

٥ - ثم كانت فجوة فى الطبيعة . وهذه الفجوات طبيعية اذ لم يكن على الطبيعة أن توجد كل المحتملات الرياضية للاتحادات المختلفة فى كل طبقة . وهذه الفجوات نظامها هو نظام الفجوات المعروفة معرفة ثابتة فى الموجات الاثرية .

٦ - فى كل طبقة من القوانين والأشياء المادية كان ازدياد التعقيد سببا فى قلق تركيبى . لهذا كان الاشعاع فى الذرات المعقدة القلقة .

٧ - اختصت ذرة الكربون - لسبب خاص فى تركيبها - بقدرتها على الاتحاد مع غيرها من الذرات اتحادا واسع المدى الى أقصى حد فكانت الجزيئات الضخمة المعقدة وهذه الجزيئات تصبح لتعقيدها قلقة التركيب مثلها مثل الذرات القلقة ذات الاشعاع .

ولكن هذا القلق منظم وله صفات خاصة . فاذا اتحدت هذه الجزيئات الضخمة القلقة مع غيرها « خرج » من هذا الاتحاد مركب له صفات جديدة وبهذا يصبح حيا .

٨ - المركبات التى تتكون منها المادة الحية نتيجة طبيعية للتعقيد البالغ فى تكوين جزيئاتها . ثم اتحدت هذه المركبات القلقة قلقا حيويا فكانت الخلية التى اكتسبت بذلك صفات الحياة نتيجة لتعقيدها وقلقها وهذه الصفات هى المقاومة

والمرونة والتكيف وهي سر تأثير الخلية بما يحيط بها دون أن تفقد بذلك شخصيتها .

٩ - اتحدت الخلايا فكانت الكائنات وظلت هذه محتفظة بصفاتها الحيوية .

١٠ - اتحاد الخلايا نوعان تكاثرى واستكمالى (١) .
فالتكاثرى أغلب فى حياة النبات وهو الذى أدى الى وجودها . اما فى الحيوان فالتكاثر محدد بالاستكمال . وهذا الاستكمال معناه وقوف التكاثر عند حد تكون الأعضاء .

١١ - ثم كانت الفجوة الثانية بين الحيوان والانسان كما كانت الفجوة الأولى بين المادة والحياة .

١٢ - التعقيد البالغ حد القلق فى الجزىء خلق فيه صفات جعلته يقبل قانونا أعلى هو التكيف والمرونة فكانت الحياة . كذلك التعقيد فى الحيوان (أو فى عضو خاص من أعضائه هو المخ) خلق فيه صفات جعلته يقبل قانونا أعلى هو المعنويات فكان الانسان . فالمعنويات هى النتيجة الطبيعية لتعقد العضو العصبى فى الانسان وهو المخ فكانت الذاكرة والعقل .

١٣ - المعنويات على ثلاثة أنواع

(١) العلم وهذا يتكفل به المخ من حيث هو جهاز الكترونى ضخيم قادر على التذكر والتمييز .

Summation and Consummation. (١)

(ب) الجمال . وهو نظام في الأشياء يجعل أثرها موافقا لنظام حواس الانسان فتتجاوب معه تجاوبا يجلب لنا السرور .

(ج) الفضائل . وهي نظام في الاشياء يجعلها تتجاوب ونظام العقل . فالصدق نظام والكذب فوضى . والفضائل جمال عقلي كما كان الجمال حسيا .

١٦ — من صفات الحياة الملازمة لها «الكبح» . وهو قدرة الكائن على الامتناع عن عمل ما وان كان عليه قادرا . والعمل الذي يستطيعه الانسان عمل عظيم لما فيه من ارادة وقدرة . لذلك كانت قوة الكبح فيه قوية قوة ارادته والكبح لا يعمل الا فيما سبقت فيه ارادة العمل والقدرة عليه ثم يكون الكبح . هذا القانون هو الضمير وهو أعلى قوانين الانسان لأنه لا يعمل الا فيما عملت فيه الارادة من قبل .

١٧ — الله بالنسبة للانسان كالأنسان بالنسبة للنحلة مثلا حين يهيء لها الانسان الراحة والغذاء ويعفيها من جهد صنع الشمع . كل ذلك عن علم وقدرة وفهم و ارادة . فهي تعلم بوجود شيء عال قادر مريد دون أن نستطيع تصور الانسان . كذلك الانسان يدرك وجود ذات عليا عالمة قادرة مريدة تعمل في حياته ولكنه لا يستطيع أن يتصورها على حقيقتها .

١ - القوانين والأشياء

جرى المفكرون منذ كان التفكير على أن القوانين والأشياء أمران منفصلان ، تعمل القوانين في الأشياء ، وتخضع الأشياء للقوانين . وعلى أن الأشياء توجد أولا ، ثم تلحق بها صفات وخواص تحددتها القوانين التي تعمل فيها ، وأن الصفات قد تتغير أو تنعدم ولكن الأشياء تبقى موجودة . تفكير طبيعي شائع ، ساعد على تحليل الظواهر تحليلا تفهم به الأشياء وقوانينها . وهو عام عند الطبيعيين والعقليين ورجال الدين . كلهم سواء في ايمانهم به .

أما الطبيعيون والكيميائيون القدماء فقد أدى بهم هذا الضرب من التفكير الى نظرية الجوهر الواحد الذي تلحق به الصفات المختلفة فتتكون منها المواد العديدة التي نعرفها . وقال الكيميائيون أن الفرق بين الذهب والفضة أن الذهب حار في الخارج بارد في الداخل . فاذا أخرجنا حرارة الفضة وأدخلنا برودتها وصبغناها صبغا حقيقيا يشيع فيها كأن

الذهب . وعلماء الطبيعة الحديثة أيضا يدينون بهذا المذهب وزادهم به ايمانا قانون نيوتن أن المادة تتغير ولا تنعدم . والنتيجة المنطقية لهذا القانون هو أن هناك شيئا ثابتا هو المادة وأن تغيراتها تكون من أثر عوامل تلحق بها . كما تلحق الألوان بالأشياء دون أن تغير جوهرها .

وانتقل هذا المذهب بشكل أوضح الى علوم الحياة . والكل على أن الحياة قانون مستقل يلحق بالمادة فتصبح كائنا حيا . وأصبحت الحياة مجموعة قوانين تعمل في الأشياء . ومن هنا جعلوا للكائن الحي جسما وروحا . فاذا خرجت الروح من الجسم فقد الحياة وأصبح ميتا . وبهذا أخذ الناس يدرسون قوانين الحياة منفصلة عن قوانين الطبيعيات .

وانتقل هذا المذهب الى الانسانيات فكانت الفرقة بين الجزء النفسى والجزء الحيوانى فى الانسان . وقسم الناس الصفات الانسانية الى معنوية ومادية وحسبوهما منفصلين، وبلغ ذلك غايته عند من يؤمنون بتناسخ الأرواح وهم يرون أن الجسم يبلى لأنه مادي والروح تبقى لتعود يوما الى حيوان آخر — انسان أو غير انسان — فيصبح حيا مرة أخرى .

هذا النوع من التفكير لم يعد مستساغا ولا بد من
العدول عنه ان أردنا أن نوحّد بين نظم الكائنات كلها .

حين يقرر الانسان أن هذا السقف يحمله هذا القضيب
من الحديد ، أترأه يقرر حقا أن القضيب هو الذى يحمل
السقف ؟ أم ترأه يقرر فى الواقع أن قوانين الصلابة هى
التي تحمل السقف . ليس هذا الفرق لفظيا . بل هو فرق
جوهرى . فلو أن القوانين الفيزيائية التي تعمل بين جزيئات
الحديد فتحدث فيه الصلابة توقفت فجأة لانهار السقف .
وإذا قلنا أن الحديد يحمل السقف أو أن قوانين الحديد
الفيزيائية تحمل السقف كان التعبيران صحيحين وكلاهما
حقيقة بل هما قول واحد . كذلك إذا قلنا أن الماء يحمل
السفينة وإذا قلنا أن الذى يحمل السفينة هو القانون
الفيزيائى الذى يربط جزيئات الماء السائل فان كلا القولين
يكون صحيحا . فاذا فرضنا أن قوانين الكيمياء التي تربط
الذرات الثلاث التي يتكون منها الماء توقفت فان الماء ينعدم
بوصف كونه ماء ولا تطفو السفينة . فالذى يحمل السفينة
فعلا هو القوانين الفيزيائية والكيميائية التي أخرجت لنا
الماء . والقول بأن المادة لا تتعدم قول فيزيائى . والتحليل
الكيميائى والانفجار الذرى يحولان المادة كما نعرفها الى

أشياء لا علاقة لها بالمادة الأولى فهو في الواقع انعدام لها . ولو
وقفت جميع القوانين الكونية لأصبح الكون مجموعة هائلة من
عنصره الأول لانتمت الى ما نعرفه عن الكون بصلة ما .

ولو وقفت القوانين المعنوية الانسانية لأصبح الانسان
حيوانا ، ولو وقفت قوانين الحياة لأصبح العالم كله جمادا ،
ولو وقفت القوانين الطبيعية لانعدمت الاجسام وأصبح
العالم كله جزيئات ، ولو وقفت القوانين الكيميائية
لانعدمت الجزيئات وأصبح العالم كله ذرات ولو انعدمت
القوانين الذرية لانعدمت الذرات وأصبح العالم كله بروتونات
والكترونات وهكذا الى ما دون ذلك — ان كان هناك
ما دون ذلك .

وبعبارة أخرى لولا الالكترونات والبروتون ما وجدت
قوانين الذرة ، ولولا الذرة ما وجدت قوانين الكيمياء ، ولولا
الجزيئات ما وجدت قوانين الفيزياء ، ولولا وجود الجزيئات
ما وجدت قوانين الحياة ، ولولا وجود الكائنات الحية
ما وجدت قوانين الحيوان ، ولولا وجود الحيوان ما وجدت
القوانين الانسانية .

الاشياء لا توجد الا بقوانينها ، والقوانين لا توجد الا
بأشياءها . من هذا تتبين لنا القاعدة الأولى في تفاضل

القوانين وهي (الأشياء وقوانينها أمر واحد لا وجود لاحدهما بدون الآخر . الأشياء تجسم لقوانينها ، والقوانين هي التي توجد الأشياء) .

٢ - القوانين العليا والدنيا

القوانين المختلفة (أو الأشياء المختلفة فالتعبيران واحد) تختلف في قوتها وميدان عملها . فمنها ما يعمل في الأمور البسيطة ومنها ما لا يعمل الا في الأمور تكون أكثر تعقيدا . ولا بد أن تبلغ الاشياء حدا من التعقيد يتيح للقوانين المعقدة أن توجد وتعمل . فاذا تصورنا القوانين والاشياء الكونية على هيئة هرم لا تقوم طبقة فيه الا على أساس من طبقة أخرى كان لنا أن ننظر الى كل قانون لا يقوم الا على نتيجة عمل قانون آخر على أن الأول أعلى والثاني أدنى .

وسنبن ذلك في القوانين المادية الثابتة ثم نطبق النظام القائم في هذه القوانين المادية على ما فوقها من قوانين حيوية وانسانية وهو الاسلوب الذي تتبعه في الكشف عن الحقيقة واثباتها فيما هو فوق المادة .

والقوانين المادية ثلاث طبقات . الذرية (ولعلها المغناطيسية الكهربائية) والكيميائية والفيزيائية . فالأولى تتكون من أثرها الذرات أو بتعبير آخر هي التي تكون

الذرات ، وهي لا يعينها ما يحدث بين الذرات من تفاعل كيميائي ولا تتأثر بتنقل هذه الذرات بين الجزيئات المختلفة . ومن ناحية أخرى نرى التفاعلات الكيميائية التي تتم بانتقال الذرات من جزئى الى آخر لا تتم ولا توجد الا بعد وجود الذرة وقوانينها . على هذا يكون القانون الكيميائي أعلى وقانون الذرة أدنى . والذرة فى تنقلها من جزئى الى آخر وفى اتحادها مع غيرها لتتكون الجزيئات — وهو عمل القانون الكيميائي — لا تتأثر بالجاذبية . ومن جهة أخرى لا تستطيع الجاذبية أن تعمل أو توجد الا بعد أن يتم تكون الجزيئات كيميائيا من ذرات تكونت ذريا . على هذا تكون الجاذبية — وهى مثل على القوانين الفيزيائية — أعلى من القوانين الكيميائية كما تكون هذه أعلى من القانون الذرى . هذه القاعدة تحدد بالضبط تحديدا علميا معنى القول بالأعلى والأدنى عند الحديث فى القوانين والأشياء .

فاذا أنتقلنا الى الكائنات الحية وقوانين الحياة وجدنا هذا التحديد مفيدا فى تحديد ما هو أعلى وما هو أدنى فى أمور البيولوجيا . فالمادة الحية نفسها أعلى من القوانين المادية لأنها لا توجد ولا تعمل الا بعد تمام عمل هذه القوانين . فلم يكن للذرات أن تتقبل الحياة لأنها لم تبلغ حد التعقيد الواجب لنشأة

القوانين البيولوجية . ولم يصبح ذلك ممكنا الا بعد أن بلغت
الجزئيات أقصى ما هو معروف من تضخم في الجزئية .

والكائن المركب من خلايا عدة أرقى من الكائن ذى الخلية
الواحدة لأن قوانين التخصص العضوى لا توجد الا بعد
ازدياد التعقيد الناشئ عن تعدد الخلايا . فاذا وجدت الكائنات
ذات الخلايا الكثيرة بدأ تكون النبات والحيوان . ونحن نعد
النبات أدنى من الحيوان . وليس ذلك للسبب الذى بيناه
من قبل وهو أن القوانين الحيوانية لا توجد ولا تعمل الا بعد
وجود القوانين النباتية . بل ان هناك قاعدة أخرى يجب أن
نعتبرها عندما نقرر أن الحيوان أعلى من النبات . هذه القاعدة
شبيهة بالأولى وهى من طرازها . ذلك أنه اذا وجد شيان
يخضع أحدهما لكل القوانين التى يخضع لها الشئ الآخر
ويزيد عليها يكون الشئ صاحب الزيادة أعلى من الشئ
الآخر . فاذا كان غير صحيح أن القوانين الحيوانية لا توجد
الا بعد أن توجد القوانين النباتية فان من الواضح أن كل
قوانين النبات من نمو وتوالد وتكيف موجودة في الحيوان
الذى يزيد عليها في الحركة وتخصص الأعضاء مثلا . لهذا
يعتبر الحيوان أعلى من النبات .

حتى اذا درسنا الانسان وجدنا قوانينه لم تكن لتعمل

أو توجد الا بعد أن يتم عمل القانون الحيوانى ويبلغ غاية التعقيد . فلم يكن لمثل النملة أن يكون لها من العقل والضمير ما يجعلها انسانا لأنها لم تبلغ من تمام الحيوانية ما يتيح لها أن تتمثل فيها الانسانيات . وهذا هو التفسير العلمى لقولنا أن الانسان أعلى الحيوانات . وليس فى مانعرف من الكائنات من يخضع للمعنويات الانسانية ويزيد عليها فنعهه أرقى من الانسان . وعلى ذلك فالانسان أرقى المخلوقات التى نعرفها . وسنعود الى هذا الموضوع فيما بعد .

وأختص الانسان بقدرته على تقبل المعنويات وهى عنوان الانسانية . ولو أن قانون المعنويات وقف لأصبح الانسان حيوانا . كما أن القوانين الكيميائية اذا وقفت صار العالم كله ذرات . والعقل هو جهاز هذا التقبل . وذلك الجزء من عمل العقل يختلف عن عمله من حيث هو جهاز التفكير . العقل يلقى على الأشياء ضوءا يديرها فتبين حقيقتها . هذا عمله من جهة ما هو جهاز للتفكير ووسيلة للمعرفة . ولكنه أيضا عضو نشأ عن الرقى الطبيعى للتركيب الجسمى . فهو بذلك عضو له وظيفته فى حياة الانسان وهو العضو الذى اختص بالمعنويات . فالعقل هو المميز الأكبر للانسان من جهته التفكيرية والعضوية . ووظيفة العقل ، من حيث هو عضو ،

تتعلق بالمعنويات . فهو يجسّمها فى صور حسية . وسنسمى هذا القوة الفنية . وهو أيضا يتأثر بما حوله من ماديّات فيحيلها الى معنويات فى نفسه . وسنسمى هذا العاطفة . كلتا القوتين مظهر من مظاهر تقبل الانسان للمعنويات . والعقل هو الذى يقوم للانسان بهذه الوظائف الانسانية الخالصة . والصفة الغالبة على هذه القوى هى النظام . وهذا النظام هو أصل تقديرنا للجمال والفضائل فالجمال يوجد حين يتجاوب نظام شىء ما ونظام العضو الذى يدركه فتكون بينهما (هارمونية) تحدث اللذة . وكذلك الفضائل قوامها النظام . فالصدق مثلا نظام والكذب فوضى ومن هنا أجمع الناس فى كل وقت على أن الصدق فضيلة . والأمانة نظام والخيانة فوضى ، والاخلاص الزوجى نظام والعهر فوضى . هذا هو التفسير العلمى للفضائل والفنون والحب وهى مميزات الانسان الكبرى .

وهناك قانون أعلى من كل ذلك لأنه لا يعمل الا فيما سبق أن عملت فيه القوانين الانسانية . ذلك هو قانون الضمير . هذا القانون تجسّم أعلى لقانون شائع فى الكائنات الحية كلها هو قانون الكبح (١) . والسبب فى اعتبارنا هذا القانون أعلى القوانين أنه لا يعمل الا بعد أن تعمل الارادة

Inhibition (١)

والتقوية والعلم . والكبح لا يكون قبل وجود الإرادة
والقدرة . ولا يعد عملا ايجابيا اذا كان فاعله جاهلا بما
سيحجم عنه . هذا القانون الذى ينهى عن العمل لا بد أن
يكون فى الكائنات بعد أن تتم قدرتها على العمل . فهو بذلك
أعلى قانون انسانى . ومن لم ينته يوما عن عمل يرغب فيه
ويقدر عليه يكون قد حكم على نفسه بالحرمان من أرقى
الصفات الانسانية . وهو أمر واضح فى المستهترين والباحين
والذين يدعون الى الطبيعة كما نراها فى الحيوان + هؤلاء
يعدون كل ما هو غير حيوانى غير طبيعى . وهو رأى بال
عنا عليه الدهر ولم يعد دليلا على التحرر العقلى كما كان يظن
العقليون .

ذكر كانط فى قطعة من أروع ما كتب أنه يشعر بضآلته
حين ينظر الى السماوات العليا وعظمتها ، ثم يشعر أنه أعظم
من هذا كله حين ينظر الى القانون الخلقى فى داخل نفسه . ولكن
كانط لم يبرهن على أن القانون الخلقى أرقى القوانين . ولم
يدلنا لم كان هذا القانون من سمو بحيث يرفع الانسان
على ضآلته الى ما فوق الكون كله على عظمته . وعندى أن
نظرية تفاضل القوانين هى التى تثبت أن القوانين الخلقية
وخاصة نواهيها هى أعلى قوانين الكون على حد ما نعلم

منها . وهى التى تثبت أن الضمير حين يدعو الانسان الى الاحجام عن عمل ما يرغب فيه وما يقدر عليه انما يمثل أرقى صفة فى الوجود . وهذا سر التحريم فى الأديان . وهذا هو موضع الضمير من القوانين الكونية .

ومن المدهش أن يكون هذا التحليل العلمى الموضوعى القائم على نظام قوانين المادة قد أدى علميا الى ما أنتهى (أو ابتداء) به الفلاسفة فرضا لا برهان عليه من أن الانسان أرقى الكائنات . وهو بالضبط ما علمنا آياه الدين تنزيلا والهاما من أن الله خلق الانسان على هيئته وأنه صورته فى أحسن صورة . ومن الناس من يحسبون ذلك رمزا ويعيدونه زهوا وغرورا من الانسان فاذا هو حقيقة كونية .

والتصاعد الذى نشير اليه تصاعد تركيبى فالقوانين العليا توجد وتعمل فى الاشياء المعقدة . وكلا الأمرين دليل على الآخر . فاذا عرف أن قانونا ما أعلى من قانون آخر فالشئ الذى يمثله يكون أكثر تعقيدا . وكذلك اذا عرف أن شيئا أكثر تعقيدا من شئ آخر كانت قوانين الشئ الأول أعلى من قوانين الشئ الثانى .

من هذا البحث يتبين لنا أن هناك قواعد ثلاثا تتعلق بما هو أعلى وما هى أدنى من الاشياء والقوانين .

(ا) اذا كان هناك قانونان لا يعمل أحدهما الا فيما سبق
أن عمل فيه الآخر كان الأول أعلى والثانى أدنى .

(ب) اذا وجد شيان تتمثل فى أولهما كل القوانين التى
تتمثل فى الشيء الثانى وتزيد عليها كان الشيء الأول أعلى
والثانى أدنى .

(ج) القوانين العليا تتعلق بالأشياء المعقدة . وكل منهما
دليل على الآخر . فالشئ المعقد يدل على أن قوانينه أعلى .
والقانون الأعلى يتجسم فى الاشياء المعقدة .

٣ - أثر القوانين العليا فى القوانين الدنيا

القضاء والقدر

سنسير فى هذا الباب سيرتنا فى جميع أبواب هذا
البحث فنبداً بدرس الموضوع فى الماديات ثم نطبق نظامها
على ما فوقها من قوانين . فنحن نعلم أن التركيب الداخلى
للذرة لا يتأثر بالتفاعلات الكيميائية التى تتعرض لها الذرة
عندما تنفصل أو تتحد مع ذرات أخرى وان كان هذا التركيب
هو الذى يحدد التفاعل الكيميائى . ويدل ذلك على أن
القانون الأعلى لا يؤثر ولا يستطيع أن يغير شيئاً من ما يكون
أدنى منه من قوانين . كذلك القوانين الفيزيائية لا تؤثر فى
القوانين الكيميائية . فذرة الماء لا تتغير حين يكون الماء

غازا أو سائلا أو صلبا ، ولا تتغير عند تأثر نقطة الماء بالجاذبية ، ولا يغير منها أن يكون الماء ساكنا أو سريعا . كل هذه الأحوال الفيزيائية لا تؤثر على القانون الكيميائي الذي يربط ذرات الأوكسجين والهيدروجين داخل جزيء الماء .

فإذا انقلنا الى القوانين البيولوجية وجدنا أنها أيضا لا تستطيع أن تغير من القوانين الكيميائية والفيزيائية التي يخضع لها الكائن الحي وكل ما يستطيعه الكائن الحي في دفع الأذى عن نفسه وعن جنسه إنما يكون بتهيئة العوامل الكيميائية والفيزيائية التي تساعد على ذلك ولكن جميع القوى البيولوجية لا تستطيع أن تغير شيئا من قوانين الأوسموز أو قانون ذوبان الغازات في السوائل ولو كان في ذلك هلاك الكائن أو فناء الجنس . وهناك مرض ينشأ من زيادة ذوبان الأزوت في الدم عندما يتعرض الجسم لضغط جوى عال كما يحدث في صناديق الضغط التي تستعمل في بناء الجسور تحت الماء . في هذه الحال تزيد كمية الأزوت في الدم . حتى اذا زال الضغط وجد في الدم فقاقيع من الأزوت تحدث شللا وقد تؤدي الى الموت . ولا يستطيع الكائن الحي أن يغير شيئا من ذلك . فان أراد مقاومة ذلك فليس له الا أن يهيء ظروفًا تمنع ضرر هذا القانون الطبيعي .

والقوانين الفيزيائية والكيميائية والذرية قوانين جامدة ،
ليس فيها فرجة تسمح بحدوث عدة أشياء مختلفة وتكون
في الوقت نفسه كلها متفقة مع هذه القوانين . ولذلك نستطيع
أن نؤكد أنه ليس هناك قانون أعلى يستطيع أن يغير من
قوانين المادة شيئا .

وإذا كانت الحياة لا تستطيع تغيير القوانين المادية
فالقوانين الانسانية كذلك لا تستطيع أن تغير من قوانين
الحياة الحيوانية في الانسان . فالمعنويات لا تؤثر فيما هو
بيولوجي خالص في حياة الانسان . فالحب مثلا لا يؤثر
في النمو ، ولو أراد العاشق ذلك لشدة شغفه بمحبوبته
الطويلة . ولا يؤثر اخلاص الآباء وحبهم لأبنائهم مثلا في الوراثة
فيخلق في الأبناء من الصفات الجسمية الجميلة ما لا يطابق
قوانين الوراثة . والضمير الحي لا يزيد في مقاومة الجسم
لميكروب التيفود . كل ذلك يدل على صواب القسول بأن
القوانين العليا لا تغير من القوانين الدنيا . على أن الأمر بين
المعنويات والحياة أكثر تعقيدا مما يكون بين الحياة والمادة .
لأن قوانين الحياة فيها مرونة واتساع ، وفيها فرجة تسمح
بحدوث أمور مختلفة كلها مطابق لها وهو ما لا يحدث في
القوانين المادية . ثم أن ازدواج وظيفة المخ من حيث هو عضو

حيوانى متصل بالجسم كله ، ومن حيث هو عضو العقل الذى هو جهاز قبول القوانين المعنوية والتأثر بها يجعل للمعنويات أثرا فى حيوانية الانسان . على أن ذلك لا يغير من القاعدة الكونية فى مجموعها أن القوانين لا تعمل الا فيما هى مهياة له ولا تغير من القوانين التى تكون أدنى منها شيئا .

الا أن هناك أثرا هاما تحدثه القوانين والاشياء العليا فى القوانين والاشياء الدنيا دون أن تغيرها . ذلك أن الأعلى يستطيع أن يؤثر فى « تاريخ حياة » الأدنى . فالقوانين الفيزيائية لا تغير من كيميا جزيء الماء ولكنها تحدد لهذا الجزيء تاريخ حياته فترفعه الى السماء سحابا أو تدخله جذور شجرة الورد فيكون سببا فى جمال لونها ومنع ذبولها . والكيمياء لا تغير من تركيب الذرة ولكنها تحدد لها مستقبلها فتجعلها جزءا من بارود يتفجرا أو من هيموجولوبين يهب الحياة . كذلك القوانين الحيوانية لا تغير من القوانين الأدنى ، ولكنها تحدد مستقبل المادة الحية أتكون جزءا من خلية فى القلب أم فى الكبد . هذا الأثر الذى يحدث للشئ الأدنى فى تاريخ حياته ، والذى لا يجد له هذا الشئ تفسيراً لأنه لا يتعلق بقوانينه هو ، والذى يحدث من أثر فعل القوانين العليا ، هذا الأثر هو عند الشئ الأدنى القضاء والقدر .

هذا هو التفسير العلمى الذى تؤدى اليه نظرية تفاضل القوانين تعريفنا للقضاء والقدر . فالحيوان الذى يذبح قربانا لله لا يدري شيئا عن القانون الانسانى الذى دفع الانسان الى هذا العمل ، وهو أمر لا يمكن تفسيره عند الحيوان بأى قانون طبيعى . لهذا يكون هذا الذبح عند الحيوان قضاء وقدرا . لا يفهم سببه ولا نظامه ولا قانونه . اما ما يحدث حين يعمل قانون أدنى فيما هو أعلى فلا يعد قضاء وقدرا وأن حبه أكثر الناس كذلك . فاذا سقطت صخرة على طفل فأنه فقتلته فان من الناس من يعد ذلك قضاء وقدرا . وهذا خطأ لأنه ليس فى هذا الحادث شىء يسمو عن أن يفهمه القاتل أو المقتول أما ذبح الكبش أضحية فهو أمر لا يمكن أن يفهمه الكبش أبدا . وان فهمه الانسان . فهو بالنسبة للكبش قضاء وقدر وبالنسبة للانسان أمر طبيعى .

هذا هو القضاء والقدر . وتطبيق ذلك على الانسان يكون بفرض أن هناك أشياء وقوانين أعلى من الانسان ، تحدد تاريخ حياته دون أن تغير من قوانينه شيئا ، فتذهب به الى ستالنجراد أو الى الصلاة ، وهو لا يفهم النظام الذى يدفع به الى هذا أو ذاك ، ويكون أثر هذه الأشياء العليا فى الانسان هو القضاء والقدر . ومن القضاء والقدر ما يحدث

لكرة الدم الحمراء التي يدفعها الخجل الى وجنة الفتاة
الخجلة . هذا بالنسبة لكرة الدم الحمراء التي تخضع للقوانين
الحيوانية وحدها قضاء وقدر ، وهو بالنسبة للانسان امر
طبيعى عادى مفهوم .

يثبتن من ذلك ان هناك قواعد عامة تحدد علاقة القوانين
العليا بالقوانين الدنيا .

١ — القانون الأعلى لا يتعدى عمله الاشياء التي هي
مهينة لقبوله والتي هو سر وجودها . ولا أثر له فى تغيير
القوانين الأدنى .

٢ — يعمل القانون الأعلى فى « تاريخ حياة » ما هو
أدنى منه ، دون أن يغير من قوانين هذا الذى هو أدنى .

٣ — الأثر الذى يحدثه القانون الأعلى فى حياة ما هو
أدنى هو القضاء والقدر بالنسبة للشيء الأدنى .

٤ — علم القوانين والأشياء بما هو أعلى

سقف المعرفة

كنت أستمتع ذات يوم الى الراديو ، وأردت أن أزيد من
قوة استقباله ، فأمسكت بسلكه الهوائى ، فزادت قوة
استقباله . ثم خطر لى انى بالنسبة الى هذا الجهاز لا أزيد

عن أن أكون مجرد امتداد لسلكه الهوائي . واني أنا
الانسان الناطق العاقل المفكر أصبحت في نظر هذا الجهاز
لا أزيد عن أن أكون كتلة من مادة تزيد من طاقته على
الاستقبال . وعنده انى أنا وكتلة مساوية لى من الحديد
سواء . ثم خطر لى أن في هذه الظاهرة مغزى عميقا قد
يكشف عن طبيعة المعرفة وحدودها .

جهاز الراديو جهاز لا يدرك الا الموجات الاثيرية . وهي
أبسط القوانين الكونية وأدناها . وهي أدنى حتى من قوانين
الذرة . والجهاز الذى لا يدرك الا أياها يعد حقا أبسط
الأجهزة . والانسان أكمل الكائنات وأعقدها . وهو خاضع
لكل القوانين أدناها وأعلاها . وتأثر الجهاز باتصاله بى يدل
بالطبع على أنه عرفنى . فماذا عرف هذا الجهاز المتناهى في
البساطة من الانسان المتناهى في التعقيد ؟ علم أولا بوجودى،
ولكنه لم يعلم من صفاتى الا ما يتعلق بقانونه وهو أنى
موصل يزيد في استقبال الموجات . وما عدا ذلك من قوانينى
وصفاتى لا علم له به ولا يستطيع أن يعرفه أبدا .

بين جهاز الراديو وبين الانسان يقوم الكون كله ولم
يمنع ذلك أن يدرك الجهاز وجود الانسان وان لم يدرك
من صفاته الا ما يتعلق بقوانينه وحدها . ثم أن كل القوانين

الكونية الكيميائية والفيزيائية والحيوية والانسانية تعتبر عند هذا الجهاز ميتافيزيقية يعلم بوجودها ولا يعلم كنهها .

ولو أن الذرة كانت قادرة على الادراك لاستطاعت معرفة ما دونها من قوانين معرفة تامة ، فهي تستطيع أن تعرف قوانين الموجات الأثيرية وقوانين الذرة والكيمياء . ولكن معرفتها لما فوق ذلك من قوانين فيزيائية وحيوية وانسانية تكون معرفة ناقصة . فهي تعلم وجود هذه القوانين لأثرها في حياتها ولكنها لن تعلم منها الا ما يكون متعلقا بقوانينها . وهذه القوانين التي تعلق الذرة تعد عندها ميتافيزيقية .

وكذلك الحيوان . يستطيع الحيوان أن يدرك كل ما هو أدنى منه . ولكن فهمه للانسان ينحصر في علمه بوجوده وفي علمه بما في الانسان من قوانين حيوانية . فهو لا يفهم دوافع الانسان التي تدفعه الى تدليله أو تعذيبه ، والى تقديسه أو ذبحه . ولا يمكن أن يعرف أن الانسان البدائي حين يذبحه انما يدفعه الى ذلك أنه يتقدم بالزلقى الى الآلهة . هذه المعنويات الانسانية لا يفهمها الحيوان وهي عنده ميتافيزيقية .

وموقف الانسان من القوانين التي هي أعلى منه لا يختلف عن ذلك في شيء . فهو يعلم بوجود هذه القوى العليا . ولكنه لن يفهم منها الا ما هو انساني وهذا هو بالضبط

ما فعله الانسان في معرفته بالله . فهو على يقين من وجوده،
ولكن فهمه لصفاته تعالى لا يمكن أن يكون الا مقيدا بما
هو انساني . وما فوق الانسان يعد بالنسبة له ميتافيزيقيا .

هذه الكلمة «ميتافيزيقيا» خطأ حين تفهم على أصلها . أى
ما وراء الطبيعة . والواقع أن واضعيها أرادوا منها ما وراء
الانسان . والتعبير خطأ واضح . ولكن الغاءها مستحيل .
ويمكن تعميمها اصطلاحا على أن يفهم منها أن كل ما يعلو
طبقة بعينها من القوانين الكونية يعد بالنسبة لهذه الطبقة
ميتافيزيقيا ولو أردنا الصواب لتحدثنا عن ما وراء الذرة ،
وما وراء الكيمياء ، وما وراء الفيزياء ، وما وراء الحيوان ،
وما وراء الانسان .

ومن صفات القوانين الدنيا أنها أبسط وأعم وأثبت من
القوانين العليا التي تزداد في صعودها تعقيدا وتخصصا
ومرونة والقوانين الدنيا أقوى من ما يعلوها . فاذا تحللت
الذرة انعدم كل ما فوقها ولم يسبق الا أجزاءها وموجات
اثيرية . واذا انحلت الجزيء انعدمت الفيزياء واذا انعدم
الانسان انعدمت المعنويات .

لكل معرفة اذا سقف لا تستطيع أن تعلو عليه . وهذا
السقف تحدده القوانين التي يخضع لها صاحب المعرفة .

المعرفة نوعان . معرفة بوجود الأشياء العليا وهذا مستطاع لكل ما هو أدنى ومعرفة حقيقة الأشياء العليا وهو مستحيل على ما هو أدنى . وسر ذلك أن كل ما هو أعلى يخضع للقوانين الدنيا كلها وبذلك يمكنه معرفتها . أما الشيء الأدنى فلا يدرك من الشيء الأعلى إلا ما تؤهله له قوانينه هو . وبذلك يدرك وجود الأعلى ويدرك صفاته إلى حد محدود وهذا بالنسبة له يعد سقف المعرفة .

من ذلك نتبين قاعدة كونية عامة هي :

(أ) يستطيع الشيء الأدنى أن يعرف وجود ما هو أعلى ولكنه لا يعرف من صفاته إلا ما يتعلق بقانونه الأدنى ومن المستحيل عليه أن يعرف كنه ما هو أعلى منه من القوانين والأشياء .

(ب) في كل طبقة من القوانين والأشياء وبين الطبقات المختلفة تدرج يجعلها منظمة تنظيما تكون فيه الأشياء والقوانين الدنيا أبسط وأعم وأثبت من العليا التي تزداد تعقيدا وتخصصا وقلقا .

(ج) المعرفة بوجود ما هو أعلى مستطاعة لما هو أدنى . ولكن معرفة الشيء الأدنى بكنه ما هو أعلى محدودة بسقف هو قوانين الشيء الأدنى .

٥ - الربوبية

سبق أن بينا ما تؤدي إليه نظرية تفاضل القوانين من تحديد علمي لمعنى القضاء والقدر . ونستطيع على ضوء هذا التعريف أن نقول أن رب أى شىء هو القوة العليا العاملة القادرة التي بيدها القضاء والقدر بالنسبة لهذا الشىء . وبعبارة أخرى رب أى شىء هو القوة العاملة القادرة التي تمثل قانوننا أعلى منه يؤثر في حياته دون أن تتغير بذلك قوانينه ودون أن يستطيع فهم حكمة هذه القوة العليا أو كنهها .

ولعل القارئ يكون قد مل الحديث عن الذرة والجزئىء ، ولكنى مضطر الى اتباع أسلوب واحد في هذا البحث كله . أسلوب تطبيق نظام القوانين المادية على ما هو أعلى منها . ولذلك أرانى أعود فى بحث هذا الموضوع ، الذى هو أسمى موضوعات البحث عند الانسان ، الى أدنى القوانين المادية .

الذرات المكونة لجزئىء الماء تستطيع أن تدرك القانون الكيمياءى الذى جمع بينها فتكون الماء . وتستطيع أن تعرف قانونها الذرى وما هو أدنى منه . ولكنها لا تستطيع أن تفهم سقوطها الى الأرض بالجاذبية ، ولا تستطيع أن تفهم

سر اضطراب علاقتها بجيرانها نتيجة للقوانين الهيدروليكية .
كل هذه الأمور التي تتعلق بقانون أعلى هو قانون الفيزياء
تظل غير مفهومة عند الذرات المكونة كيميائيا لجزيء الماء .
وهي تعد حدوث هذه الأشياء أمرا غامضا لا يمكن استنتاجه
طبيعيًا من القوانين التي تعرفها الذرة . ولا مناص لها من أن
تعد ذلك قضاء وقدرًا . وأن تعد القوة التي تحدث هذه
الأمور قوة تحكيمية لا يفهم نظامها أو سرها ، وإن كنا نحن
الذين نمثل قانوننا أعلى من كل ذلك نرى أن هذا أمر طبيعي
جدا . ومن الطبيعي للذرات أن ترى أن القوة الفيزيائية عالمة
قادرة ولو لم تكن كذلك ما كان لها أن تسيطر عليها على
هذا النحو .

ومن الناس من يعنون بالنحل بعناية خاصة يدرسون
طباعها وحياتها . فتراهم يعدون لها الأزهار التي تحبها
ويهيئون لها الجو الذي يناسبها ، والحرارة التي تسعد بها ،
بل تراهم يرفعون عن كاهلها مشقة عمل الشمع . كل ذلك
حرصا على عسل ذي صفات خاصة بكمية وافرة . ونحن
نستطيع أن نتصور رأى النحل في هذه القوة أو هذا الشيء
الذي يقوم لها بذلك كله . فهي تراه عالما بكل شيء . ولو لم
يكن علمه بخصائصها كاملا ما استطاع أن يدبر لها ما يوافق

طباعها على أحسن وجه ، وهي تراه قادرا على كل شيء . ولو لم يكن كذلك ما استطاع أن يهيئ لها ما هيا إلى حد إيجاد الأزهار وتغيير الجو وخلق الشمع . وقد ترى في ذلك دليلا على حبه لها وعطفه عليها . وهي بعد ذلك كله لا تستطيع أن تتنبأ بصفات الانسان الجسمية أو النفسية أو العقلية . ولا تستطيع أن تفهم حكمة هذه الأعمال . ولها أن تعدها ارادة مطلقة لقوة عالمة قادرة غير مقيدة بنظام أو قانون ولها أن تخشى غضبها عليها وأن ترى فيها القدرة على ابادتها كما استطاعت من قبل أن تحسن اليها . ولها أن تحرص على ارضائها وان لم تعلم على التحديد ما يرضيها وما يغضبها . ولعلها اذا عصفت بها عاصفة أو جفت وديانها أو ذبلت أزهارها أو فسد شمعها أن تعد ذلك غضبا عليها من أثر خطأ ارتكبته في حق هذه القوة . ولها بعد ذلك كله أن تسميها ربا .

أليست هذه الربوبية شبيهة كل الشبه بما يراه الانسان في الله سبحانه وتعالى . أليس هذا الشرح العلمى الموضوعى — على ما أظن — للربوبية يطابق بالضبط رأى أهل الدين والتنزيل في صفات الله . أليس هذا التقاء غير متوقع للعلم والدين في فهم الربوبية . وفي هذا التلاقى برهان على صدق الدين وصدق العلم . ولو كان أحدهما على الحق والآخر على الباطل ما كان بينهما هذا التوافق .

النظام العام للكون والمعرفة

إذا كان للمعرفة حق في الوجود فذلك الحق لا يقوم الا على مطابقة نظامها للنظام الكوني . وإذا كان النظامان متطابقين فان ما نعلمه عن الكون يقينا يمهد لنا الطريق الى الفهم الحق للمعرفة ، وسد النقص الذي يكون فيها . وما نعلمه عن المعرفة يقينا يساعد على سد النقص الذي يكون في علمنا بنظام الكون . ولم يبلغ علمنا بالكون حد اليقين الا في العلوم الطبيعية . ولم يعد أحد يشك في أن هذه العلوم في جوهرها صحيحة مطابقة للواقع . والنجاح المنقطع النظير الذي صادفه تطبيق هذه العلوم يجعل مطابقتها للواقع أمرا لا يقبل الشك . ولا نزاع في أنه لا يزال في هذه العلوم فجوات . ولكن نظامها أصبح واضحا وان لم نحظ بتفصيلاته كلها . وقدرتنا على التنبؤ يقينا بما سيحدث في دائرة العلوم الطبيعية يثبت أمرين ، أن هناك نظاما عاما لها واننا نعلم من هذا النظام ما يجعلنا نثق أن ما نجهله منها لا يختلف عن ما نعلم .

النظام العام للمعرفة (والكون) هرمى . قاعدته بسيطة عريضة ثابتة ، ويزداد ما فوقها تعقيدا وتخصصا وقلقا ، كلا الهرمين يتكون من أهرام صغرى كلها تقوم على النظام نفسه حيث تكون القاعدة بسيطة ثم تقوم عليها أمور تزداد تعقيدا كلما ازدادت علوا . والتعقيد بالطبع لا يتعلق بالحجم وانما هو أمر تركيبى يتعلق بالقوانين التى تعمل فى الاشياء . فالأرض أبسط من النملة لأنها لا تخضع الا للجاذبية وهو قانون فيزيائى يعتبر أدنى من القوانين الحيوية التى تخضع لها النملة . وليس فى ذلك غرابة فقطعة السكر مثلا بسيطة الشكل جدا ، وهى مع ذلك مكونة من بلورات شكلها معقد الى أقصى حد . ولنكرر هنا ما قلناه سابقا من أن التعقيد لا يتعلق بالزمن ، والقول بأن الأمور البسيطة خلقت أولا ثم تلاها ما هو أعلى منها قول لا برهان عليه . وانما هو تشويه اضطر اليه العقل لعجز طبيعى فيه عن فهم الزمن . والتطور يكون مما هو أبسط الى ما هو أكثر تعقيدا لا من الأقدم الى الأحدث .

على أن أكبر ما فى هذا النظام من صعوبة هو هذه الفجوات الكبرى التى نراها فيه . والفجوات تكون فى علمنا بما هو موجود ، وهذا يسهل تلافيه عاجلا أو آجلا .

وتكون فى الكون نفسه . فليس على المخلوقات أن تشمل جميع الاحتمالات التى يستطيعها هذا النظام . وقد ظهرت هذه الفجوات بشكل واضح جدا فى الموجات الاثرية . هذه الموجات لها سرعة ثابتة ونسبة ثابتة بين طولها وذبذبتها ، واختلفت فيما عدا ذلك . ولم توجد أطوالها كلها فى الطبيعة . وكثير منها لم يظهر الا على يد الانسان . ولكن ما لم يخلق منها فى الطبيعة لا يختلف فى نظامه عما خلق . كذلك الفجوات الموجودة فى النظام الحيوى والانسانى بعضها طبيعى . اذ لم تخلق كل الكائنات التى يحتلها النظام الحيوى . ومع ذلك فان هذه الفجوات لا تحجب النظام العام للحياة . والبحث عن الحلقات المفقودة كان بحثا عبثا لأن الباحثين عنها لم يدركوا حقيقة أمر الفجوات . والفجوات الكبرى التى تقوم بين الأجزاء الثلاثة للمعرفة وهى المادة والحياة والانسان من أصعب الأمور فهما ولكنها ضاقت الى الحد الذى نستطيع معه أن ننتقل من نظام الى نظام دون مشقة كبيرة على العقل . وسنعود الى البحث فى الفجوات عند الانتقال من الحديث عن طبقة الى الحديث عن طبقة أخرى . فان فهمها أصل من أصول البحث فى وحدة المعرفة .

وقد بذلنا جهدا فى فصل سابق للتدليل على أن العلة

الغائية خطأ . وكثير من المحدثين ينكرون أن للعالم غاية ولكننا في انكارنا للعلة الغائية لا ننكر أن النظام القائم له غاية كما يكون للهرم قمة . وكل ما ننكره أن تكون هذه القمة هي المحددة لنظام الهرم . ونحن لا نرى مانعا أن نعترف أن النظام الهرمي العالمى والنظم الصغيرة التى تمثل قطعا منه داخل النظام الكونى لها غاية يحددها النظام وليست هي التى تحدده .

ولسنا فى حاجة عند التدليل على النظام التصاعدى للمعرفة والكون الى فروض كثيرة . بل هناك فرضان اثنان لا بد من قبولهما أولا . الفرض الأول أن أصول الكون بسيطة جدا وأنها ازدادت تعقيدا حتى بلغت الانسان أو ما فوقه . والفرض الثانى أن هذا النظام التصاعدى يقوم على ترتيب مستقر . فرضان قد يكونان كالفروض القديمة التى لا أساس لها ، وقد لا يزيدان على فرض القدماء أن أركان العالم أربعة النار والهواء والتراب والماء . الا أنه من حسن الحظ أن الطبقة الأولى من التكوين العالمى وهى قوانين المادة تثبت هذين الفرضين ثبوتا يكاد يكون يقينا . وفى ذلك أكبر دليل على أن هذين الفرضين القائمين على نظم هذه الطبقة لا بد أن يكونا حقيقة من غير شك .

١ — مادون الذرة

دهش الناس يوم فجرت الذرات مصداقا لنظريات الطبيعيين ، ولا يزالون يظنون أن أثرها في حياة الانسان سيكون على أعظم جانب من الخطورة . والواقع أن أثرها في التفكير أعمق وأبعد أثرا . وقدما أثبت الكيميائيون أن المواد الكائنة في العالم والتي لا حد لعددتها مكونة كلها من عدد قليل من الذرات لا يزيد على ٩٣ . وكان ذلك كشفا ضخما . ثم جاء علماء الذرة فأثبتوا أن عدد المواد التي هي أصل الكون أقل من ذلك كثيرا وأنها لا تعدو شيئين أو ثلاثة . ولم نكشف بعد حقيقة هذه الأصول القليلة العدد . ولكن تطبيق نظام الذرة على ما هو أدنى منها قد يتيح لنا في المستقبل أن نفجر الالكترتون والبروتون والنيوترون — وويل لنا من القوة التي ستنتج من هذا الانفجار — وقد يتبين لنا أن أصل الكون شيء واحد متناه في الصغر ، له قوة واحدة هي قوة الاتحاد مع غيره فتتكون على نسب مختلفة الالكترونات والبروتونات . هذا حلم علمي يسوغه ما نعلم عن تطور العلم الذي فجر الجزيئات (كيميائيا) وفجر الذرات (الكترونيا) وليس بعيد أن تكون الخطوة التالية تفجير الالكترتون (كهريا ؟) وقد تكون وحدة الموجة الاثيرية

ويظن الآن أنها مجسّمات لا موجبات أو الوحدة الكهربية
أو الفوتون الأصل الأول للكون .

(في البدء كان النور) كما تقول التوراة ، وعلينا أن
نفهم أن البدء هنا معناه الأصل وهو تعبير تركيبى . على
حين أن الناس يظنون أن معناها فى الأول وهو تعبير زمنى .
على أنه قد يثبت العلم فى المستقبل أن هذا الأصل الذى
ستنفجر عنه الالكترونات لن يكون شيئاً سوى تلك المجسّمات
المتناهية فى الصغر التى يتكون منها النور . وتكون هذه
الجملة أصدق علمياً مما يظن أكبر المؤمنين .

هذه المجسّمات الصغيرة المكونة للموجبات الاثيرية اتحد
بعضها مع بعض فخرج منها مكونات الذرات . وبقي بعضها
موجبات اثيرية ومنها النور . ولعل قانونها الذى خلق الاتحاد
والذى خلق من الاتحاد هو قانون الكهربية المغناطيسية .

هذا كله رجم بالغيب . أو أكثره كذلك . ولكننا سقناه
اعتماداً على ما نعلم عن مكونات الذرة والجزيئات . وامتداداً
لهذه النظم الى أسفل . ولا أحسب الطبيعيين ينكرون أنه
على الأقل نظام محتمل أو ممكن .

٢ — الذرة

علمنا بالذرة أول المعرفة اليقينية التى وضح نظامها .
فقد تكونت الالكترونات والبروتونات وأضرابها — على

نحو ما - من مجسمات (أو موجات) اثيرية (؟) نتيجة لقوانين خاصة بها (كهربية مغناطيسية ؟ أو ميكانيكية تموجية ؟) فلما تكونت هذه الأصول اتحد بعضها مع بعض على نسب مختلفة فخرجت من هذا الاتحاد الذرات المتعددة . ذات صفات تختلف اختلافا تاما عن صفات أصولها . وهي نتيجة لقانون أرقى هو قانون الالكترونات ، وهي في الوقت نفسه سبب لقانون جديد هو قانون الكيمياء هي عنصره الذي لا تكون الكيمياء بدونه ممكنة . وقوة الاتحاد هذه تجمع بين الأشياء المتشابهة وغير المتشابهة فتخرج منها أشياء جديدة تتحد بدورها مع أشياء أخرى متشابهة وغير متشابهة فتخرج منها أشياء جديدة أخرى تتحد مع غيرها إلى آخر المطاف . هذه القوة عامة في جميع طبقات التكوين الكوني . وهي سر تنوع الأشياء مع قلة أصولها أو وحدتها . ولولاها لكان العالم شيئا واحدا بسيطا .

٣ - الجزئيات

اتحدت الذرات بعضها مع بعض طبقا لقوانين الكيمياء التي خلقها وجود الذرات ، على نسب مختلفة فخرجت الجزئيات ، وهي شيء جديد يختلف في خواصه عن الذرات . ووجودها يخلق قوانين جديدة هي القوانين الفيزيائية التي لم

تكن لتوجد لو لم تتحد الذرات أو لو لم توجد القوانين الكيميائية . هذه الجزيئات أكبر عددا من الذرات طبقا لقانون التبادل الرياضى ، كما كان عدد الذرات أكبر من عدد أصولها للسبب نفسه . وهى أكثر تعقيدا وقانونها الفيزيائى أعلى من القانون الكيميائى كما كان هذا أعلى من القانون الالكترونى وكما كان هذا أعلى من القانون الكهربى الاثيرى ؟ . حسب ما سبق أن ييناها من أسس التفاضل بين القوانين .

من هذه الطبقات الأربعة مادون الالكترونات والالكترونات والذرات والجزيئات تتكون المادة وقوانينها. ولسنا نحاول الآن أن نضيف جديدا الى علم المادة ولا أن نتعمق تفاصيلها ولكننا نستطيع الآن أن نبين القواعد العامة التى يوضحها نظام قوانين المادة . والتى تعيننا على فهم ما فوقها من اشياء وقوانين.

هذه الطبقة الكبرى من طبقات الكون — طبقة الماديات — واضحة المعالم ، بسيطة التركيب ، خطوطها مستقيمة وزواياها قائمة ، وأهرامها متساوية الأضلاع ، وسطوحها مستوية . قوانينها مطردة لاعوج فيها ولاالتواء ، أولها يدل على آخرها ، والعلم بها ثابت والتنبؤ القائم على هذا العلم صادق حتما ، ومطابقتها للواقع لا تحتمل الشك أو

التأويل . رياضياتها حسابية بسيطة والاستثناء فيها محال .
وأكثر ما ذكرناه قبلا عن تفاضل القوانين يقوم على
مانعته من قوانين هذه الطبقة . ولا نريد أن نكرر هنا
ما قلناه سابقا عن وحدة القوانين والاشياء وعن اتحاد أجزاء
كل طبقة صغرى بمشكلاتها على نسب مختلفة فيخرج منها شيء
جديد له خواص جديدة يخلق قوانين جديدة . وهناك بعض
القواعد لم نعرض لها تفصيلا من قبل ونريد أن نزيدها
ايضا الآن .

فمن جهة التركيب نرى أن تعقد أى قانون أو شيء يجعل
تركيبه سهل التفكك . فالبروتونات والالكترونات
القليلة العدد فى ذرات الأيدروجين ثابتة يصعب تفجيرها .
أما عندما يبلغ تعقد الذرة حد اليورانيوم فإن الكتروناته
تصبح قلقة سهلة التفكك ولا يكون من الصعب تفجيرها
وسنرى أن هذه قاعدة عامة فى جميع الطبقات الكونية . فعند
تضخم الجزيئات تضخما بالغيا تصبح قلقة . وهذا القلق اذا
كان منظما يخلق فى الجزيء صفات تؤهله لقبول قانون
الحياة وهو ما لا يستطيعه الجزيء البسيط لثبات تركيبه .

ومن جهة أثر القوانين الدنيا فى العليا . فقد بينا من قبل
علاقة هذه القوانين بعضها ببعض . ونزيد هنا أن فعل القوانين

الدنيا اذا اشتد أو عنف أو حدث فجأة كان من أثر ذلك أن لا تستطيع القوانين العليا مقاومته . فبالاحتراق عمل كيميائي عنيف تتبادل فيه الجزيئات ذراتها فتتكون جزيئات أخرى وينهار بذلك كل ما يقوم على هذه الجزيئات من قوانين حيوية أو انسانية . والانهجار الذرى عمل عنيف تتبادل فيه الذرات الكتروناتها وبروتوناتها فتخرج ذرات جديدة . وينهار بذلك كل ما يقوم على هذه الذرات من جزيئات وتنعدم كيميائوها . وينعدم كل ما فوق الكيمياء من قوانين .

وهنا مجال القول فى قانون من قوانين نيوتون التى كانت فى زمانها كسفا عظيما وحقيقة لا نزاع فيها . وهو قانون بقاء المادة . وصاحب القانون فيزيائى . وقانونه حق فى دائرة الفيزياء . ولكنه لا يصدق الا فى هذه الدائرة المحدودة ولا يخرج معناه عن أنه ما دام تركيب الجزيء كيميائيا ثابتا فانه لا ينعدم بتغيير حالته فيزيائيا . وخير مثال لذلك الماء فانه لا ينعدم بالتبخر حين يصبح غازا ، ولا بالتصلب حين يصبح ثلجا . ولكنه اذا تحلل الى ذرات فانه ينعدم حتما بوصف كونه ماء ولا تبقى له من خواص الماء صفة واحدة . اذا فرضنا أننا نعتبر عدم انعدام ذرات الأوكسجين والهيدروجين المكونة للماء بقاء لمادة الماء فان هذا المنطق ينتهى بنا الى غير

شيء . فان انفجار كل من ذرات الأوكسجين والأيدروجين يحولها الى مجموعة من الالكترونات والبروتونات لا تمت الى الماء ولا الى ذرة الأوكسجين بصلة . فاذا أردنا أن نبقى على قانون بقاء المادة فليكن ذلك معناه أنه في كل طبقة من طبقات المادة لا تنعدم الأجزاء المكونة لهذه الطبقة ما دامت الطبقة قائمة . فالذرة لا تنعدم بتحولها من جزيء الى آخر ما دامت طبقة الذرات قائمة ، والالكترونات لا تنعدم بتحولها من ذرة الى أخرى ما دامت طبقة الالكترونات قائمة . والجزيئات لا تنعدم بالتحول من حال فيزيائية الى أخرى ما دامت طبقة الفيزياء قائمة . وهذا المعنى الأخير هو المعنى الضيق الذي أراده نيوتن . اما عدم انعدام المادة أصلا فان معناه أن المكونات الأولية للكون لا تنعدم وهو قول لا غناء فيه . ولا يصدق الا من وجه واحد . وهو من خير الأمثلة على أن قضية ما تكون حقيقة وخطأ في وقت واحد . صادقة في دائرة بعينها . كاذبة فيما يخرج عن هذه الدائرة . وهو ما لم تقبله الفلسفة العامة حتى الآن .

لم تعد المادة شيئا منفصلا عن الموجات الاثيرية التي هي أدنى منها ، ولم تعد شيئا منفصلا عن القوانين التي تعلوها . وانما هي مرحلة من مراحل التصاعد الذي يزيد القوانين والأشياء تعقيدا . فهي أعقد من الموجات وأبسط

من الحياة . ولكنها ليست شيئا خاصا يوضع لمواجهة
غيره من الأشياء كما كان يفعل القدماء حين قسموا
الأشياء الى موجات ومادة وحياة . التقاسيم القديمة جعلت
هذه الأشياء منفصلة كأنما ليست بينها صلة . مع أنها من أصل
واحد اختلافها ليس في الواقع الا اختلافا في التركيب
بساطة وتعقيدا .

٤ - الفجوة الأولى

مذهب تفاضل القوانين الكونية واتساق نظمها لا يستقيم
الا اذا درست الفجوات التي تقوم بين طبقات هذه القوانين
كبيرةا وصغيرةا . هذه الفجوات ليست قائمة في المعرفة
وحدها ، فهذه قد يكون سببها الجهل . أما الفجوات التي
نحن بصدددها فهي الفجوات التي نجددها في الطبيعة نفسها .
والناس حين يستقيم لهم الكشف عن نظام بعينه يجهدون
أنفسهم في البحث عن الحلقات المفقودة في هذا النظام .
كأنما على الطبيعة أن يوجد فيها كل ما يمكن أن تحتمله
قوانينها . بهذا الظن غمض علينا كثير من الانظمة الكونية ،
والواقع أن كثيرا من الحلقات المفقودة ليست نتيجة لنقص
في علمنا بها بل هي مفقودة حقا .

وخير سبيل الى فهم نظرية الفجوات هو درس الموجات

الأثيرية . ذلك أن بها فجوات لم تخلق في الطبيعة ، ثم استطاع الانسان أن يصنع منها ما لم يوجد في الطبيعة . فلما تم لنا ذلك ظهرت لنا الحقيقة المدهشة وهي أن الموجات الاثيرية كلها ، الطبيعية منها والصناعية ، خاضعة لنظام واحد وقوانين واحدة . وتم لنا بذلك العلم الكامل بقوانين الموجات . ولم يتم ذلك الا بعد أن استطاع العلم أن يملأ الفجوات كلها . ولعلنا لن نستطيع في القريب العاجل أن نملأ الفجوات الطبيعية في جميع طبقات القوانين والاشياء . ولكن لنا في تاريخ علمنا بالموجات الاثيرية عبرة تدلنا على أن وجود الفجوات لا يمنع وحدة النظم والقوانين المختلفة .

الموجات الموجودة في الطبيعة هي أشعة الضوء مع امتداد قليل الى ما تحت الاحمر وما فوق البنفسجي ، وأشعة جاما الموجودة في الأجسام المشعة كالراديوم ، والأشعة الكونية . وهذه الانواع الثلاثة تختلف في أكثر خصائصها . فقوة نفاذها مختلفة ، وآثارها في الكائنات مختلفة ، وزوايا انكسارها مختلفة . بل لم يفتن الناس في أول الأمر الى أنها من طبيعة واحدة . ثم استطاع الانسان أن يقيس طول هذه الموجات وذبذبتها . فتبين له أن حاصل ضرب طولها في عدد ذبذباتها ثابت ، وسرعتها واحدة . وبدأ الناس

يفكرون في أنها واحدة وأن نظامها واحد ، سوى أنه بين هذه الأنواع فجوات لم نعرف عنها شيئاً . ولما كشف العلم عن طريقة صنع الموجات استطاع العلماء أن يوجدوا منها ما لم يوجد في الطبيعة . فصنعوا منها أشعة روتجن . وهذه ملأت الفجوة بين أشعة النور وأشعة جاما . ثم صنع الناس موجات الأذاعة . وهذه ملأت الفراغ القائم فيما تحت الأحمر . عند ذلك ظهر أن هذه الموجات كلها من طبيعة واحدة . وأن في مقدور الانسان ان يصنع منها ما طوله كيلومترا ، وما طوله جزء من المليون من المليمتر . كلها تنتقل بسرعة واحدة وكلها لها طول يقاس وذبذبة تحسب وعلاقة أطوالها بذبذبتها ثابتة . وتبين أن فجوات الطبيعة لا تنفى وجود نظام ثابت لها . وأن اختلاف خصائصها لا يمنع أن طبيعتها واحدة .

هذا المثل أهم الأمثلة التي توضح لنا معنى الفجوات ، وحقيقة أمرها ، وأن وجودها أمر طبيعي ، وأن وجود الحلقات المفقودة أو عدم وجودها لا يؤثر في وحدة القوانين واتساق نظمها .

الفجوات الكبرى في الطبيعة هي التي تقوم بين المادة والحياة ، وبين الحيوان والانسان ، وبين الانسان وما فوقه . على أن كل طبقة من هذه الطبقات الكبرى بها فجوات . فالذرات

الموجودة في الطبيعة أقل عددا من الذرات التي يمكن أن يؤدي إليها — رياضيا — اتحاد البروتونات والالكترونات . والانسان استطاع منذ عهد قريب أن يصنع ذرات كثيرة ليست موجودة في الطبيعة ولكنها حين صنعت ظهر أنها كلها خاضعة لنظام واحد . وكذلك الذرات لم تتحد على جميع الهيئات التي يمكن — رياضيا — أن تتحد عليها . فلم توجد في الطبيعة جميع الجزيئات الممكنة كيميائيا . بل وقف تكوين الجزيئات في أكثر الأشياء عند عدد قليل جدا من الذرات . وشذت عن ذلك لأمر ما ذرة الكربون . فقد استطاعت أن تتحد — في الطبيعة — مع الاوكسجين والايديروجين على أشكال متعددة جدا لا نهاية لها وبهذه الوسيلة تكونت جزيئات معقدة غاية التعقيد . وكان أساسها كلها هذه الذرات الثلاث . وزاد تعقيدها الى حد اكتسبت به القدرة على خلق قوانين الحياة والخضوع لها . وسنعرض لذلك توا .

والذي يعنينا الآن هو وجود الفجوات في الطبيعة ، لا في المعرفة وحدها ، وأن الحلقات المفقودة سواء استطاع الانسان أن يملأها أم لم يستطع لا تؤثر في وحدة القوانين الكونية . والفجوة الأولى هي التي نراها بين المادة والحياة . وهي لا تختلف عن الفجوة بين الضوء وأشعة جاما . يخيل لنا في

أول الأمر أنه لا يجمعها شيء ثم لا نلبث أن تتبين بينها علاقات طبيعية معقولة .

٥ - الحياة

ما زال الناس يفكرون في أمر الحياة منذ كان التفكير . ولهم في شأنها آراء اختلفت باختلاف العصور ومذاهب التفكير السائدة في كل عصر . وقد جمع العلماء حقائق كثيرة جدا عن الكائنات الحية ، وعرفوا بينها علاقات تصلح أن تكون قوانين للحياة ، وبعض هذه القوانين صالح للعمل به ، وان لم يكن تفسيرها حقا للظواهر التي يتناولها . مثل ذلك مثل قول أرسطو في حركة الدخان الى أعلى وحركة الحجر الى أسفل . فهو يعلل ذلك بأن كلا الشيتين يحاول الرجوع الى أصله . نظرية صالحة للعمل بها وان كانت غير صحيحة ولا مطابقة للقوانين المعروفة في مجال المادة . كذلك أكثر نظريات البيولوجيا قديمها وحديثها . ولعل من النظريات الحديثة ما هو أبعد عن الحقيقة من القديمة . وان كانت أصلح منها لتفسير عدد أكبر من الظواهر الحيوية .

ولا أريد أن أضيف جديدا الى علمنا بالحياة ، ولكنني سأستعرض النظريات المعروفة ، وسأطرح منها جانبا ما يكون مخالفا للنظام الكوني العام ، مهما تكن فائدته في شرح

معضلة بعينها . ثم أبحث بعد ذلك في وضع نظام عام لنظريات الحياة يفسر ظواهرها ويكون في الوقت نفسه مطابقا للنظام الكونى العام .

وكان من الطبيعى فى مذاهب التفكير الغائية أن تنسب الحياة الى قوة عليا أعدت تفصيلاتها كلها ، ورتبت أمورها ترتيبا عجيبا فى نظامه وقوته . وقد بينا من قبل ما فى هذه المذاهب الغائية من ضعف . وكثير من الفلاسفة والعلماء الفلاسفة يحسب أن نظرتة الى الحياة أعمق من نظرة رجال الدين وأقرب الى الحقيقة . وهم فى الواقع لا يختلفون عنهم فى شىء . ومن أحدث النظريات فى ذلك رأى يرجسون فى وجود قوة أسماها الدفعة الحيوية (١) تعين للكائنات سبيل التطور الذى يؤدى بهما الى التوفيق الحيوى . ولا أدرى — من حيث طبيعة التفكير — فرقا بين هذا وقول رجل الدين أن الله يهبىء للحيوانات وسيلة الحياة ، وقول الطبيعيين أن الطبيعة هى التى تخلق فى الكائنات أعضاءها التى توافق حياتها . كل هذه المذاهب من معدن واحد . وليس فيها ما يساعدنا على فهم الحياة وقوانينها .

انما يكون الفهم الحق للحياة حين نربط بينها وبين ما هو

(١) Elan Vital

أدنى منها من القوانين المادية . وليس لهذا البحث علاقة
ما بوجود قوة عليا هيأت الكون كله أو بعدم وجودها .

وقديما ظن الناس أن الكائنات الحية تختلف اختلافا تاما
عن الجماد . ثم استطاع أحد الكيميائيين أن يركب مادة
البولينا وهي من المواد الخاصة بالكائنات الحية ركبها في
معمله من مواد كيميائية بسيطة . فلما تم له ذلك انهار الجدار
الذي حسه الناس فاصلا بين الجماد والحياة . وتبين أن
كيمياء الحياة لا تختلف عن كيمياء الجماد وكان هذا كشفا
عظيما . ثم أسرف العلماء فحسبوا الحياة مجرد كيمياء عضوية
من نوع معقد . وهي في الواقع كذلك . ولكنها ليست مجرد
كيمياء وان كانت الكيمياء أصلها . كما يكون الماء شيئا
خاصا له خواصه وقوانينه مختلفة تماما عن خواص عناصره .
كذلك الحياة قد يكون أصلها كيميائيا فيزيائيا ولكنها
بتعقيدها خلقت قوانين جديدة هي قوانين الحياة . وهي
تختلف تماما عن قوانين الكيمياء وان كانت بالطبع لاتعرضها
ولا تغير منها . كما بينا ذلك من قبل عند تحديد العلاقة بين
القوانين العليا والدنيا .

وحسب الناس قديما أن الحياة قوة تلحق الجماد فتجعله
حيا . هذا أثر من آثار التفكير الثنائي الذي ذاع أمره قديما

وقد سبق أن بينا ما فيه من ضعف . فالحياة قانون الكائنات الحية . والكائنات مظهر هذا القانون . والحياة والكائن الحي ، كالقانون والاشياء ، أمر واحد لا يكون أحدهما بدون الآخر . والقول بأن الحياة قوة تخلق الكائنات لا يغنى شيئا . بل هو كقولنا أن القوة الكيميائية هي التي تكون المركبات . وهو قول لا فائدة منه . انما يعيننا أن نعرف قواعد التكافؤ الذرى ونظام اتحاد الذرات كيميائيا . عند ذلك يتضح أمر الكيمياء ومركباتها . كذلك الحياة . لو علمنا قوانين اتحاد جزيئات البروتو بلازم بعضها ببعض عند تكوين الخلية . وقوانين اتحاد الخلايا عند تكوين الكائنات لكان هذا علما حقا . اما القول بالقوة الحيوية أو الطبيعة أو الدفعة الحيوية فليس هذا من العلم فى شىء بل هى ألفاظ يقوم بعضها مقام البعض الآخر دون أن يزيد ذلك فى معرفتنا بالحياة شيئا .

اما البيولوجيون فقد تناولوا ظواهر الحياة وفسروها تفسيرات مهما تكن صوابا فى حدود بعينها فان أكثرها لا يتسق والنظام العام . ولهذا يجب أن نعدل عنها تماما .

وقد حاول علماء البيولوجيا أن يتحللوا من المذاهب الفلسفية المختلفة . واتبعوا الطريق العلمى وهو جمع أكبر عدد من الحقائق ودرسها درساً يبين ما بينها من علاقات .

ولكنهم في أكثر أبحاثهم لم يكونوا قادرين على التجربة الى الحد الذي يستطيعه علماء الفيزياء فكان البرهان القاطع عليهم عسيرا . ثم استطاعوا اخضاع بعض مظاهر الحياة الى التجربة فكان علم الوراثة وعلم الأجنة التجريبي ولهذين العلمين شأن كبير في تحديد النظريات الحديثة للحياة .

ومن المسائل البيولوجية التي تناولها الباحثون مسألة نشأة الحياة . والعلماء في أوائل هذا القرن كانوا يقررون أنها نشأت بمحض الصدفة . وأن التفاعلات الكيميائية العنيفة التي صحبت برودة قشرة الأرض أوجدت عفوا مادة البروتوبلازم . وكانوا يقولون أننا متى فرضنا وجود البروتوبلازم فإن القوانين الطبيعية كفيلا بعد ذلك بتفسير كل ظواهر الحياة ولكنهم عادوا بعد ذلك الى نظرية المصادفة عند بحث التطور . هذه الصدفة ضعف كبير في نظرية التطور الحيوى . واللجوء اليها لا يفسر شيئا من أسرار الحياة . كذلك الجهل بقوانين الكيمياء قد يدعو الكثيرين الى فرض الصدفة تفسيرا لها والواقع غير ذلك . فقد أثبتت البحوث الذرية أن لكل ذرة صفات كيميائية ترجع الى عدد البروتونات فيها . ولعل عدد البروتونات التي في ذرة الكربون أو شكلها جعلها مهياة لقبول أكبر عدد من ذرات الاوكسجين

والايدروجين وهى خاصة لم تنهياً لأية ذرة أخرى . ولعل هذه الحقيقة هى التى مهدت السبيل الى تكون الجزيئات العضوية القابلة للتعقيد الى أقصى حد . مازالت هذه الجزيئات طبقاً للحقيقة العامة التى بينهاها — يزداد تعقيدها حتى بلغت حداً من القلق جعلها خاضعة لقوانين جديدة مكتسبة بذلك صفات جديدة تجعلها حية . فليس فى الأمر صدفة وليس ذلك متعلقاً بالأرض . ولا يدري أحد هل فى الكواكب الأخرى ظروف تجعل ذرة الكربون قادرة على تكوين مركبات معقدة من نوع آخر تعقيداً يجعلها قابلة للحياة . والغالب أن تركيب الكون واحد وأن ذرة الكربون وحدها هى التى أختصت بهذه القدرة . وأن كل حياة فى أى كوكب لن يكون محورها شيئاً غير ذرة الكربون . وان اختلفت الكائنات فيها عن الكائنات الأرضية .

ومن الأمور التى أدهشت علماء الحياة من قديم ذلك التطابق العجيب بين وظيفة العضو وتركيبه . وكان طبيعياً أن يظن الناس أن الوظيفة أريدت أولاً ثم خلق العضو مطابقاً فى تركيبه لهذه الغاية . وقد شرحنا ما يعترض هذا التعليل الغائى من صعوبات جعلت المذهب كله غير قابل للبقاء . وقد عفا الزمن على التفسيرات الفسيولوجية للتشريح .

والعلاقة بين العضو وتركيبه علاقة لا شأن لها بالعلة والمعلول . والأقرب أن التركيب هو الذى يخلق الوظيفة . وعلماء الحياة وحدهم هم الذين يقولون بأن الوظيفة تخلق العضو ولم يسبق أن قال أحد من الفيزيائيين أن الجاذبية وجدت لتسقط التفاحة على الأرض . ولم يقل أحد أن تركيب البنزين كيميائيا نتيجة للغرض الذى يستعمل من أجله كوقود . هذا وضع مقلوب ومن الوضع المقلوب أن نعد التوافق بين الكائنات الحية وظروف حياتها أمرا يدل على أن الوظيفة وجدت أولا . والا فلم تعددت الوظائف ولم اختلفت وسائل التطابق حين اختلفت ، ولم تشابهت حين تشابهت وعلم الأجنة دل على أن أكثر صفات الاعضاء من حيث التركيب ترجع الى أسباب فى النشأة لا الى أسباب وظيفية .

على أنه لا مفر من تفسير العلاقة بين الضوء والعين . ولم كانت العين مكورة تكويرا تاما وهو ما لا بد منه للافادة منها كعضو وظيفته تتعلق بالضوء . لا بد أن الابصار وهو شىء يتعلق بالضوء هو الذى حدد تركيب العين لتوافق خواص الضوء . هذا من أروع الأمثلة على أن الوظيفة تخلق العضو . ولكن هذا التطابق بين صفات الضوء وتركيب العين ليس شيئا مباشرا . فالضوء لا يعمل فى خلية ما عملا مباشرا

فيخلق العين . وانما هي علاقة عميقة وقد لا يلتقيان الا في أصل الكون نفسه وتكوين موجاته الاثيرية وعلاقة ذلك بتكوين المادة الحية والخلية الأولى . مثل ذلك مثل علاقة ماء الطمى الذى يغمر شجرة ما وقت ازدهارها بطبيعة ثمرها . فقد يخيل الى الناظر لأول وهلة أن الطمى يثمر الشجرة بأثره عليها مباشرة . ويساعد على هذا الفهم أن تكون هذه العلاقة مطردة عاما بعد عام . وأن يكون حرمان الشجرة من الطمى مانعا من نضوج ثمرها . والواقع أن هناك علاقة . ولكنها علاقة غير مباشرة . فالطمى فيه مواد تمتصها الجذور فتعلو في الجذع وتصل الى الأوراق فتفاعل هناك تفاعلا يؤدي الى نضوج الثمر . وليس هذا توافقا مباشرا بين الطمى والثمار . كذلك التوافق بين العين وتركيبها والضوء وخواصه . علاقة معقدة لا شأن لها بأثر الضوء المباشر فى خلية أو مجموعة خلايا . ولا يمكن أن تكون العلاقة وجود قوة خارجية عن الأمرين هياتهما ليتوافقا . فالضوء أثبت خواصا . والعين أعقد تركيبا من أن يوفق بينهما شىء مباشرة وعلم الأجنة التجريبي استطاع أن يضع العين فى ذنب الحيوان اذا نقلت خلايا بعينها فى زمن بعينه الى الذيل . ولو كانت هناك قوة خارجية تهيبء العين للنور ما تكون منها شىء حين تصبح عاطلة بوضعها فى الذيل .

ومن أكبر مشاكل علوم الحياة الوراثة . وقد دهش لها الناس منذ زمن بعيد . واختلفت الآراء فيها . وبعض هذه الآراء بدائي جدا . من ذلك أن كل كائن حي يحمل طفلا صغيرا جدا . وهذا يحمل طفلا أصغر وهكذا الى آخر الدهر ! على أن علم الوراثة في العصر الحديث استطاع أن يجمع كثيرا من الحقائق وأعانه على ذلك أن التجارب ممكنة في هذا الفرع من علوم الحياة . وقد استطاع العلم أن يثبت أن للوراثة أصلا ماديا . وهو حق لا مرأى فيه . ولكنهم جعلوا هذه الأصول الخاصة بالوراثة (وقد سميت الجينات) أصلا لصفات بعينها كالطول والضحامة ولون العين ونبرة الصوت الى غير ذلك من الصفات الحيوانية . جعلوا لكل منها جينا خاصا ورتبوا الجينات حسب موضعها من الكروموزومات . وعندى أن هذه خطوة الى الوراء . لأنها تجعل للصفات وجودا مستقلا يورث . وهو غير صحيح . فالطول ليس صفة تورث وانما الذى يحدد الطول هو عدد مرات انقسام خلايا النمو في عظام الجسم . وقد يكون هذا متعلقا بجزء خاص من الكروموزوم نسميه جينا ويكون للجين وجود . ولكنه لا يمثل صفة . والجين في الغالب مثله مثل مجموعات الذرات الخاصة التى توجد في الجزيء العضوى الكبير . والتى تظل ساكنة في أكثر تفاعلاته . ثم

تظهر في تفاعلات خاصة . ولا يمكن أن يقال أن هذه المجموعة صفة خاصة في الجزئي ، بل الصفة هي نتيجة ظهور هذه المجموعات الذرية في وقتها المناسب . مثال ذلك اللون الأسود في الجلد . يرجع الى وجود مجموعة ذرات في الخلية الأولى أو سلالتها تظل ساكنة في الانقسامات المتعددة التي تحدث للخلية اثناء النمو . حتى اذا التقت بمادة في خلية الجلد تفاعلت معها فوجد اللون الأسود . ولا يصح أن يقال أن هذه المجموعة الخاصة من الذرات (الأولى أو ما بعدها) تمثل صفة السواد في البشرة وان كانت الأصل فيه . ويكفي أن تتغير كيمياء الخلايا الجلدية فلا تتفاعل معها المادة الخاصة فلا يكون السواد . ولو كان الجين يحمل صفة بعينها ما استطاع أحد أن يغير منه بأي عامل . كل ذلك يدل على أن الوراثة ليست شيئا غريبا بل هي ظاهرة يمكن تفسيرها في حدود نظام الحياة العام ونظام الكون كله . وسنعرض فيما بعد لوراثة الصفات المكتسبة والخلقية . وسنرى أن تفسير ذلك كله مستطاع .

ومما أحدث أكبر الأثر في فهم العلماء للحياة علم الأجنة . وقد أثبت العلم أن الجنين في الحيوان الراقى يمر بأدوار تشبه الحيوانات الدنيا . وقالوا أن ذلك يدل على أن

الحيوانات الراقية أصلها هذه الحيوانات الدنيا . وأن تاريخ الجنين يعيد تاريخ الجنس وهو تصوير للواقع لاسوغ له . ولو أن البيولوجيين استهدوا الكيميائيين لعلموا أن هذا الفرض لا داعي له . إذ أن وجود ذرتين من الايدروجين وذرة من الأوكسجين في مركب ما لا يدل على أن هذا المركب كان أصله ماء أو أنه مر في تركيبه بخطوة كان فيها ماء . ومن حسن حظ الكيميائيين أنهم لم يصابوا بتفكير البيولوجيين فلم يفرضوا أن تكوين مركباتهم يدل على تاريخ تركيبها .

على أن البيولوجيين لم يضلوا في شيء ضلالهم في نظرياتهم عن التطور رغما عما في هذه النظريات من حقائق . من ذلك أنهم حسبوا التطور عملية زمنية وظنوا أن أبسط الكائنات أقدمها وأن أرقاها أحدثها ظهورا . وقد بينا خطأ ذلك من قبل . وظنوا أنها تقوم على تغيرات عرضية تثبت صلاحيتها فتعيش . وينقض ذلك بشكل واضح تطور العين . فان دقة تركيبها تجعلها غير قابلة للتغيرات العرضية دون أن تفقد خاصيتها الأولى وهي الأبصار . فتطور العين لا يمكن أن يكون نتيجة لتغيرات طارئة ثبتت صلاحيتها فاستمرت بالوراثة . وقد تغلبوا على هذه الصعوبة بقولهم ان التغيرات تحدث دائما في اتجاه مفيد للكائنات . وسنعود الى ذلك

فيما بعد . وقالوا في التطور أنه نتيجة لتنازع البقاء وبقاء الأصلى . وهى نظرية عليها طابع الحياة الانجليزية فى القرن التاسع عشر . ولا تصلى تفسيراً لوجود الأنواع وتنظيم الكائنات . وقالوا أن الحيوانات تغير لونها اتقاء لهجوم أعدائها عليها فى تنازع البقاء . ثم ثبت أن هؤلاء الأعداء لا يدركون الألوان . وأكثر صيدهم بالليل . والحيوانات التى تغير لونها ان كانت تفعل ذلك لمقاومة الأعداء فما بال جيرانها التى لا يتغير لونها لم تنقرض . ولو كان عامل التطور هو هذا الذى يقولون به لكائنات الحياة اليوم نوعاً واحداً راقياً كاملاً متغلباً على كل ما عداه . ولا تقرضت الحيوانات الدنيا التى لم تتكون الحيوانات العليا — فى زعمهم — الا لعدم صلاحية الدنيا للبقاء .

كل هذه الآراء فى التطور لا تقوم على نظام يتفق ونظام الحياة العام . ولا داعى لفرض وجود التطور على النحو الذى يقول به كثير من العلماء . كل ما يدل عليه التطور هو أن هناك تصاعداً فى التعقيد يتبعه كمال فى التركيب وتوافق أتم بين الكائن الحى وبيئته .

وهناك مثل رائج للتطور من بين آلاف الأمثلة نسوقه هنا لتدبره . فى بعض الأماكن القاحلة الجافة التى لا تمطر الا

نادرا يوجد حيوان تحت عينه غشاء يتجمع فيه الماء فيغمس
الحيوان عينه فيه حتى لا تجف عينه فتفسد . يفسر رجال
التطور هذه الظاهرة على أن هناك حيوانات عدة جفت عينها
وانقرضت ثم ظهر مصادفة هذا الغشاء تحت عين فرد من
جنس في سبيل الاقراض . وأدى هذا الغشاء الى بقاء هذا
الفرد فتوالد واندثر من لم يكن له مثل غشائه . هذا التفسير
بدائي لا يستقيم وفيه طفولة في التفكير عجيبة . وكان من
أثر هذه النظرية في التطور أن أخذ الناس يبحثون عن
الحلقات المفقودة ولست أدري ما يدعونا الى فرض وجود
كائنات حية مختلفة تنقرض ثم لا يبقى منها الا الأصلح . كأن
على الكائنات الحية أن تتحسس طريقها الى مطابقة تركيبها
حاجاتها وظروف حياتها . مثل ذلك كمن يفرض أن الحجر
الذي يخضع للجاذبية فيسقط يتحسس اتجاهات مختلفة حتى
يتبين الاتجاه الراسي فيسقط فيه . ألا يمكن أن تكون
قوانين الحياة مثل قانون الجاذبية تسير بمقتضاها الكائنات
الحية دون أن نفرض أنها تتلمس طرقا مختلفة ثم تنتهي الى
ما انتهت اليه ؟ .

هذا بعض ما يؤخذ على المذاهب البيولوجية القائمة اليوم .
ولا نزاع في أن فيها كثيرا من الصواب . ولكن الصورة التي

منعرضها لهذه القوانين قد تكون أشبه بالقوانين الطبيعية الأخرى . وفي هذا وحده دليل على صوابها ومطابقتها للواقع .

ليست الحياة الا مرحلة من مراحل التصاعد فى التعقيد التركيبى للأشياء . فالجزيئات الضخمة خلقت القوانين البيولوجية وخضعت لها ، كما خلقت الجزيئات القوانين الفيزيائية وخضعت لها ، وكما خلقت الذرات القوانين الكيميائية وخضعت لها . تضخم الجزيئات جعلها قلقة التركيب . كما كان تضخم الذرات مؤديا الى قلقها . وهذا القلق الحيوى المنظم هو سر صفات الحياة التى نشهدها .

تركيب الجزيئات الضخمة القلقة خلق فيها قوانين الحياة . وهى التكيف والتكاثر . اما التكيف فهو نتيجة لصفتين فى الجزيء الحى . صفة التأثر بما حوله وصفة المقاومة لهذا التأثر . كلا الصفتين نتيجة طبيعية للتضخم والقلق فالجزيئات البسيطة الثابتة لا تتأثر بسهولة بما حولها ولا تقاوم كثيرا اذا تأثرت . أما الجزيء الضخم فيستطيع أن يتأثر دون أن يفقد شخصيته . وعلى قدر التأثر وعلى قدر المقاومة يكون التكيف . وهو القانون الأول للحياة . ولما كان التركيب

الداخلي للجزئىء الحى أو الخلية الحية أو الكائن الحى أشد أثرا فى تكوينها من العوامل الخارجية كان طبيعى أن تحتفظ الكائنات بأكثر صفاتها الخلقية وأن تأثر أفرادها بالعوامل العارضة . ومن المهم فى هذا المجال أن تؤكد أن الصدفة لا شأن لها فى هذا التكيف ولا شأن للتفاعلات الكيميائية عند برودة قشرة الأرض بتكون المادة الحية . ولا شأن للمصادفة فى التكيف أو التطور أو الوراثة . بل كل ذلك يرجع الى قوانين حيوية ثابتة ترجع الى صفات فى الجزئىء الحى هى أشبه الاشياء بالصفات الكيميائية فى الذرات المكونة للمادة . ويفسر كثيرا من معقدات الحياة أن نعد الكائنات مركبات عناصرها الخلايا والخلايا مركبات عناصرها الجزئىء الضخم . عند ذلك نرى الشبه واضحا بين المركبات الكيميائية التى عناصرها الذرات وبين المركبات الحية التى عناصرها الخلايا .

اما التكاثر فهو قانون يزيد به الحى من حجمه أو تركيبه حتى يبلغ حدا لا يتفق ونظام تركيبه فينقسم . ومن هذا يكون النمو والتوالد .

ولا نزاع فى أن أعجب ما فى الصفات الحيوية وأكثرها غموضا علينا هو انقسام الخلية . وهو سر التكاثر والتوالد .

وإذا فهمناه فهما حقا فان كثيرا من مشاكل الحياة يصبح
مفهوما معقولا .

ونحن لا نزال نجهل كنه القوة التي تدفع الخلية الى
الانقسام . وقد حاول علماء كثيرون أن يرجعوا هذا الانقسام
الى قوى فيزيائية أو فيزيائية كيميائية ولكن نظرياتهم في هذا
الباب لم تصادف نجاحا . على أن جهلنا بما يدعو الخلية
الى الانقسام لا يحول دون محاولتنا البحث في القوة المنظمة
له . وهو يتم على نحو يدعو الى الدهشة والعجب . وبه
تستطيع الخلية أن تنقسم الى قسمين متشابهين غاية الشبه
بعد أن ترتب أجزاءها ترتيبا دقيقا غاية الدقة . وليس لهذا
النظام مثل في غير الكائنات الحية . وكان طبيعيا أن يظن
المفكرون أنه لا بد أن يكون مرجعه الى قوة حيوية خاصة
تختلف اختلافا تاما عما نعرف من القوانين الكونية الأخرى .

ولنذكر أن الناس كانوا يعجبون لكل ظاهرة أصلها
الكهرباء حين لم يكونوا يعرفون عن الكهرباء شيئا . وقد
رأيت بحثا في التنفس قبيل اكتشاف الأوكسجين ، يكاد
يكون كل ما فيه صحيحا . واستخلص الباحث من دراسته
أن الهواء فيه شيء يحتاج اليه الدم يأخذه منه عند التقائهما

فى الرئة . ولكنه لم يكن له أن يبلغ بعلمه أكثر من ذلك قبل أن يكتشف الأوكسيجين . وليس عجيبا أن نعجز عن فهم اقسام الخلية ونظامه ما دمنا لا نعرف الا القوانين الكيميائية والفيزيائية فهى لا تكفى وحدها لتفسير هذا الاقسام. والواقع أن هناك قوة أخرى كشفها الباحثون حديثا وقد يكون فيها التفسير الحق لاقسام الخلية . وهى القوة الالكترونية . ولعل تنظيم محتويات الخلية وترتيب اتجاهها عند اقسامها يكون نتيجة ترتيب الكتروني . كأن الالكترونات فى الذرات المكونة للجزيئات الضخمة الحية تستطيع عند الاقسام أن تتجه اتجاهها واحدا وتنقسم على ترتيب بعينه . والتنظيمات الالكترونية تتم دون تغير كيميائى . فان الصفات الكيميائية للذرة تتعلق بالنواة وعدد بروتوناتها ولا تتعلق بعدد الكتروناتها أو ترتيبها . وكذلك يتغير الترتيب الالكترونى فى سلك المسجلات ويمكن استعادة التسجيل بناء على هذا الترتيب الجديد ، دون أن تتغير كيمياء السلك فى قليل أو كثير .

وسنعود الى هذه الالكترونات كثيرا فيما بعد . ولست أقدم هذا على أنه نظرية ثابتة . ولكنى أسوقه اظهارا لما يمكن أن يكون للقوى الكونية التى نعرفها من شأن فى تنظيم خواص الحياة . ولا داعى لأن تقصر القوى العاملة

على الكيمياء والفيزياء كما حاول بعض العلماء أن يفعلون أن يصيبوا في ذلك نجاحا . هذه القوة التي وصفتها أنها الكترونية قد لا تكون كذلك حتما . ولكنها قوة شبيهة بها على أى حال . قوة لها قدرة التنظيم والتوجيه ، دون أى تغيير كيميائى أو فيزيائى ، ولها قدرة على التأثير بالعوامل الخارجية اذا كانت مما يعمل فى الالكترونات . وتستطيع الاحتفاظ بهذا التأثير ما لم تغيره عوامل أخرى من نوع المؤثر الأول . أى انها تحتفظ بترتيبها وتظهر آثاره مهما تعددت التغيرات الكيميائية والفيزيائية التى تعترض الخلية ومادتها الحية . هذا ما يجعلنا قبل الصورة التى نعرفها عن الانقسام والتناسل والوراثة على أنها ممكنة دون حاجة الى فرض قوة أعلا من الحياة تهيء لها هذا النظام . وبذلك لا تكون هناك حاجة الى فرض علة غائية . أو فرض قوة غير قوة القوانين الأدنى عند محاولتنا فهم ما هو أعلى .

وقد نستطيع أن نفهم كثيرا من معضلات علم الحياة على ضوء هذه التصورات . لا بزيادة فى علمنا بالوقائع ولا بإضافة جديد الى هذه العلوم ولكن يتم لنا ذلك بتنظيم معرفتنا بهذه العلوم تنظيما جديدا . وكثير من المشاكل التى أقامها علماء الحياة أمام أنفسهم ترجع الى أنهم خلفاء الفلاسفة

فكان عليهم أن يتناولوا مشكلات هي من عمل الفلاسفة وحدثهم ولا وجود لها في الطبيعة . ولو كانوا خلفاء الرياضيين والطبيين — كما يجب أن يكون الحال في التنظيم العقلي الشامل للمعرفة — لكان لهم غنى عن كثير من الصعوبات التي اعترضتهم . ويظهر ذلك واضحا في تناولهم مشكلات الوراثة . وخاصة وراثة الصفات المكتسبة ، ومشكلات التطور .

والبحث في وراثة الصفات بحث لا داعي له . وهو يقوم على فرض أن الصفات حالات تلحق بالأشياء بعد وجودها . وقد بينا من قبل خطأ هذا الفرض . فصفة الشيء وتركيبه أمر واحد لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر . وعلى ذلك لا يكون هناك محل للبحث في توارث صفات الكائن الحي . مثال ذلك أن البحث لا يكون في توارث الطول أو في توارث نقطة سوداء في اللون الأزرق للعين في مكان بعينه في الأب والابن ولا في توارث بروز سن بعينها في جميع أفراد الأسرة الواحدة . إنما يجب أن نعد الطول أمرا يتعلق بعدد مرات انقسام خلية النمو العظمية . وأن حلية العين التي رسب فيها اللون الأسود لم تكن سوداء حتى انقسمت الاقسامات الأخيرة فتكونت فيها مادة كيميائية سوداء . والسببية في

هذه الأحوال يجب أن تكون سببية مباشرة في الانقسام
الخلوى وقت حدوثه . وليس صفة كامنة في الخلية الأولى
تورث حتما . والواقع أن خواص الخلية تنشأ عن تركيبها
الداخلي والعوامل الخارجية . ومن الطبيعي عند انقسام
الخلية الأولى أن يكون التركيب الداخلي أقوى أثرا في
خواص الخليتين الجديدتين من العوامل الخارجية . ولما
كانت خواص الخلية الأولى التي تكون منها الأب تشابه
الى أكبر حد الخلية الأولى للابن وكانت أدوار انقسامهما
واحدة فإن التشابه بين الأب والابن يكون معقولا . ولكن
إذا كان يدهشنا هذا التشابه فإن من المدهش أيضا أن لا نجد
أبا وابنا يتشابهان تشابها تاما في كل شيء بل أن التوأمين
يختلفان في أمور كثيرة جدا . وهذا يدل على أن عوامل
كثيرة خارج الخلية تعمل أثناء الانقسام الذى يحدث ملايين
المرات قبل أن يتكون الكائن الحى كله . وتركيب هذا الكائن
تحدده العوامل التركيبية الداخلية وعوامل خارجية تتعلق
بزمن الانقسام وسرعته وظروف الخلايا عند كل انقسام .
وعلى هذا لا تكون هناك صفات خلقية وأخرى مكتسبة
تورث أو لا تورث . بل هى خلايا تنقسم وتجتمع ويتوالى
انقسامها . وإذا اتحدت ظروف خلايا بعينها فى الأب والابن
كان تشابههما فيما هو خلقى أو مكتسب على حد سواء .

ولنضرب لذلك مثلا توارث سواد الجلد في الجنس
الأسود . في هذا الأمر سلسلة من الاخطاء في التصور
جعلت فهمه صعبا . والآراء القديمة في الوراثة تقوم على أن
الانسان كان أبيض ثم انتقل الى المناطق الحارة . فاسود جلده
من أثر الشمس — أو لمقاومتها !! — ثم أصبح هذا اللون
صفة مكتسبة . ثم ورثت هذه الصفة المكتسبة . ونما
أصحاب الجلد الأسود لقدرتهم على مقاومة الشمس واقترض
الآخرون فكان الجنس الأسود في البلاد الحارة . كل هذه
فروض لا مبرر لها على الاطلاق .

وإذا كان سواد جلد الزنجي أثرا مباشرا للشمس أو كان
تغيرا خلويا مفيدا اكتسب الدوام نتيجة لتنازع البقاء
وبقاء الأصلح فلم لم يكن جلد كل حيوان في المناطق الحارة
أسود . والأسد حيوان راق والقروود حيوانات قريبة من
الانسان في صفاتها وليست كلها ذات جلد أسود . وإذا كان
لون الزنوج صفة مكتسبة موروثة ساعدت على بقاء الأصلح
فلم كان فيهم الأتف الأفطس والشفة الغليظة . كل ذلك
وغيره من الاعتراضات الواضحة على هذا التصور يجعله
غير مقبول . وفي هذه النظريات طفولة عجيبة وبساطة في
التفكير وخروج عن النظام الكوني العام يجعلها عديمة

الفائدة بعيدة عن الواقع وان صلحت لتفسير عدد قليل من الظواهر البيولوجية .

الواقع أن هناك تصورا آخر لتفسير سواد جلد الزنوج في المناطق الحارة قد يكون أشبه بالحقيقة وأقرب الى القوانين الطبيعية الكونية من التصور السابق . وقد تكون هناك علاقة بين الشمس وسواد الجلد ولكنها ليست علاقة مباشرة كالتي يظنها أصحاب الرأي القديم . بل قد يكون هذا الأثر من نوع أثر الشمس في احمرار الهيموجلوبين في الدم . ذلك أن الشمس تسبب تبخر المياه في المحيطات فتسوق الرياح السحاب الناشئ عن هذا التبخر الى جبال عالية ثم تنهم مطرا يحمل مركبات حديدية الى الأنهار فتتغذى بها نباتات يأكلها الانسان فيدخل الحديد جزئيات الهيموجلوبين فيصير أحمر . هذه علاقة بعيدة معقدة وقد تكون علاقة السببية بين الشمس ولون جلد الزنوج من نوع هذه العلاقات البعيدة المعقدة . ولذلك نراها لا تحدث دائما . ومن الحيوان ما لم يتهاج جلد له لقبول المادة الملونة . هذا المثل يدلنا أيضا على أن التكيف ليس تغيرا سطحيا يعرض للفرد ليقويه ضررا أو ليصلح من تركيبه تبعاً لبيئته . بل كل هذه علاقات معقدة تمتد الى أصول الخلايا وخواص تركيبها .

وإذا كانت الخلية الأولى التي يتكون منها الأب تتمتع بالخاصية التي نحن بصددتها . وهي أنها عند انقسامها للمرة « ن » تتكون فيها مادة سوداء فليس عجيبا أن تتمتع الخلية الأولى للأب بنفس الخاصية فتتكون فيها نفس المادة السوداء عند انقسامها للمرة « ن » . بهذا يصبح توارث هذه الخاصية طبيعيا . ولما كان التركيب الأول للخلية الأولى متشابها في الأب والابن كانت وراثه سواد الجلد أمرا طبيعيا ، الا أن يحول دون ذلك عائق أثناء الانقسام .

على هذا النحو يصبح نظام الوراثة نظاما معقولا لا شذوذ فيه ويكون كل ما دار من بحث حول الصفات الخلقية والمكتسبة وتوارثها بحثا لا غناء فيه .

وعلماء الوراثة المحدثون جمعوا معلومات كثيرة جدا من مشاهداتهم وتجاربهم العديدة وتناولهم الأجنة بالتجارب التي تغير من تركيبها تغيرا فجيا يختلف تمام الاختلاف عن التغيرات الدقيقة التي تحدثها فيها القوانين البيولوجية . ومن أثر هذا العلم العزيز أن قامت نظرية الجينات (جمع جين) وهي أن في كل خلية جبات مرصوفة رصا منظما كل جبة منها مسئولة عن صفة من صفات الكائن الحي وأن في الانسان مثلا ما يقرب من الف وخمسمائة صفة قابلة للوراثة يمثل كلا منها جين بعينه . ولا نزاع في صواب المعلومات

التي تقوم عليها هذه النظرية . ولكنى أعتقد أنها ستعدل
تعديلا يخرج منها كلمة الصفات . فلا يقال أن للطول جينا
خاصا . ويخرج منها أن الجين حبة مادية . ولو أننا قلنا أن
التركيب النهائي للجسم يتوقف على التنظيم الخاص الكيميائي
أو الالكتروني داخل الكروموزومات وأن هذا التنظيم
ثابت بحيث أن التأثير في جزء منه يؤثر على ما حوله على
نحو خاص . ولو أننا قلنا أن الجين تعبير مادي عن وضع
خاص داخل الكروموزوم لكانت النظرية معقولة مقبولة .
فليس هناك جين للطول . ولكن هناك ترتيبا في الكروموزوم
يتنهي الى خلية النمو في العظام وعلى تركيب هذا الجزء
الخاص تتوقف قدرة العظام على النمو فان كانت كبيرة كان
الطول وان لم تكن كان القصر وبذلك يتحقق معنى الجين
دون أن نفرض وجود جزئية لصفة الطول .

ولعل حدة الخلاف بين من يؤمنون ايمانا جازما بالجين
ومن يؤمنون بأثر البيئة تخف كثيرا اذا قبل هذا الوضع
لنظرية الوراثة . لأن التركيب النهائي للكائن يتوقف على
العوامل التي تؤثر في الخلايا النهائية عند انتهاء نموها .
وهذه العوامل أكثرها تركيبى خلقى جينى ولكنه يتأثر الى
حد ما بما تكون عليه الظروف المحيطة بهذه الخلايا اذا كانت

هذه الظروف من النوع الذى يؤثر فى تركيبها . والغلبة بالطبع للتركيب الداخلى الخلقى فى أكثر الحالات .

ومن مشاكل علم الحياة التوافق العجيب بين العضو ووظيفته . ويعد هذا من معجزات القوة الحيوية . والناس يظنون أن الوظيفة خلقت العضو الذى يؤديها على هذا النحو من الكمال . وقد ضربنا أمثلة كثيرة فيما سبق على أن هذا التفكير الذى قوامه العلة الغائية لا يمكن قبوله عقلا مهما يكن التوافق عجيبا . وإنما هو تركيب العضو الذى حدد الوظيفة . وهذا التركيب يقوم على أصول كيميائية وفيزيائية بل قد تكون الكهرونية أيضا . وهذه الأصول تتكيف بما يحيط بها من ظروف تجعل تركيبها يوافق ما سيؤديه العضو من عمل فى هذه البيئة . ولكن ذلك ليس معناه أن البيئة والوظيفة هى التى خلقت العضو على الهيئة التى هو عليها . فالقدم الانسانى يؤدي وظيفته وهو مهيا لها بشكل غريب . ولكن لو أن الطبيعة كانت حرة فى خلق قدم الانسان . ولم تكن مقيدة بالتاريخ الحيوى لخلية الانسان الأولى لكان من السهل عليها أن تخلق قدما أكثر ثباتا وأقل تعرضا للخلل وأكثر ملاءمة لوظيفته من القدم الانسانى . والواقع أن القدم الانسانى الحالى مواءمة بين ضرورات التركيب الحيوى

للخلايا وضرورات الوقوف عليه . وقد بينا من قبل أن التوافق بين العضو ووظيفته ليس من قبيل السببية المباشرة بل هو نتيجة بعيدة الأصول . كما تكون العلاقة بين غزارة الأمطار في الحبشة ومحصول القطن في مصر ، ولا يمكن أن يقال أن زيادة محصول القطن في مصر سبب لغزارة الأمطار في الحبشة .

على أن محور التفكير البيولوجي الحديث وجماع نظرياته كلها هو نظرية التطور . وهي في جملتها صحيحة من غير شك والمشاهدات التي تقوم عليها عجيبة والعلاقات المنظمة بين أنواع الكائنات المختلفة رائعة . ولم يزدها الزمن الا قوة . فالتشريح المقارن وعلم الأجنة وعلم الأجنة التجريبي كل هذا أثبت أن الكائنات الحية تتشابه على نحو عجيب وأن تركيبها يزداد تعقيدا على نظام واضح . ثم ظهرت علاقات دقيقة بين الكائنات تزيد في ثبوت نظرية التطور . وكلنا يعلم الشبه الواضح بين القرد والانسان . ولكن التجربة الآتية تبين أن الشبه ليس سطحيا في الأعضاء بل هو عميق جدا . ذلك أنك اذا حقنت حيوانا بدم انسان تكونت في دم الحيوان مادة مضادة لدم الانسان تحدث معه راسبا . وهي تصلح بعد ذلك للكشف عن عينة بعينها

من الدم أهو دم انسان أم دم حيوان . والتجربة نوعية جدا
أى أنه لا يرسب دم أى حيوان عند اختلاطه بهذا الدم المجهز
خاصة الا اذا كان دم انسان . وشذ عن ذلك دم القرود فهو
يحدث راسبا مثل دم الانسان لكن الراسب فى هذه الحال
يكون أقل كثيرا . كأن الشبه بين القروود والانسان امتد الى
خاصية كيميائية عميقة بعيدة كل البعد عن وظائف الأعضاء
أو تشريحها . هذا برهان واضح على أن التطور حقيقة لاشك
فيها . ومع ذلك ففى نظريات التطور هنات يجب أن نعدل
عنها دون أن ننس جوهر التطور نفسه .

أولا — ليس هناك ما يدعو الى فرض أن الكائنات
الراقية كانت من قبل كائنات دنيا ثم ارتقت . كما أنه ليس
هناك ما يدعو الى القول بأن المواد الكيميائية المعقدة كانت
فى أول الأمر بسيطة ثم تعقدت .

ثانيا — ليس التطور أمرا زمنيا بل هو أمر تركيبى خالص
ينشأ عن زيادة فى التعقيد التركيبى للكائنات زيادة منظمة
تصاعدية .

ثالثا — البحث عن الحلقات المفقودة بحث لا غناء فيه .
وليس وجود الحلقات المفقودة ضروريا فى اثبات وجود

نظام تسلسلى تصاعدى . ذلك أن عدد الكائنات الحية الموجودة فعلا يقل كثيرا جدا عن عدد الكائنات الممكنة رياضيا اذا أمكن حساب الاحتمالات التى يمكن أن يؤدى اليها تركيب البروتوبلازم والخلية والنسبة بينهما قد لا تزيد عن نسبة قطرة الماء الى ماء البحر . فمن العبث أن نلتمس سلسلة من الكائنات يتضح فيها نظام حيوى فيه كل خطوات التطور . مثل ذلك مثل علمنا بالأمواج الأثيرية فإن ما فى الطبيعة منها لا يكون السلسلة كلها . الا أن الانسان استطاع أن يصنع الحلقات المفقودة فى الأمواج الأثيرية فثبت لديه نظامها قطعا . ولم نستطع أن نعمل شيئا من ذلك فى الكائنات الحية . ولا يمنع ذلك من الجزم بأن هناك نظاما . بل يمكن القول أنه مادام تركيب الكون كله واحدا . وعناصره واحدة فإن الحياة فى غيرنا من الكواكب تكون مشابهة للحياة عندنا من حيث أن قوامها الكربون ومركباته . ولكن الكائنات نفسها قد تكون مختلفة عن الكائنات التى على الأرض اختلافا تاما .

رابعا — عامل التطور أمر لا يزال غامضا . وهو من غير شك يرجع الى تغيرات فى الخلية . وقد قيل أن هذه التغيرات تنشأ صدفة ثم تبقى بعد ذلك لأن الكائنات الناشئة عنها تكون أصلح للبقاء . وهو فرض لا برهان عليه . بل الواقع أن هذه التغيرات طبيعية فى الخلية طبقا للقانون الكونى العام

الذى يزيد فى تعقيد كل شىء زيادة تصاعديّة . وصورة الكائنات التى ينتهى اليها انقسام الخلية ترجع الى تركيبها الداخلى وأثر العوامل الخارجيّة . وبين هذه وتلك يتكون التركيب النهائى للكائن الحى . وليس للصدفة شأن فى ذلك خامسا — النظريات التى تفسر علاقة الوراثة والصفات المكتسبة والبيئة بالتطور تحتاج الى تعديل . وقد بينا ذلك فى الحديث عن الوراثة .

ولا شك اننا اذا استطعنا أن نكشف قوانين اتحاد الخلايا كما كشفت قوانين اتحاد الذرات فان علمنا بالحياة سيصبح واضحا منظما كما هى الحال فى علم الكيمياء .
وخلاصة القول فى هذه الطبقة الكبرى من طبقات القوانين الكونية وهى طبقة الحياة أنها أمر يمكن أن ينشأ من زيادة تعقيد الجزيئات الكيميائيّة . وأن الصفات الخاصّة بالحياة تنشأ من هذا التعقيد كما نشأت القوانين الكيميائيّة من أثر التعقيد الناشئ عن اتحاد الذرات وكما نشأت القوانين الفيزيائيّة من أثر التعقيد الناشئ عن اتحاد الجزيئات . وأن هذه الصفات الخاصّة بالحياة وهى التكيف والتكاثر والتكامل والمرونة والمقاومة كلها ممكنة دون أن نفرض وجود قوة خاصّة خارجيّة تسمى الحياة تنظم هذه القوانين كلها . ونظام هذه الطبقة هرمى كنظام طبقة القوانين الماديّة .

أسفلها أبسطها وأعلاها أكثرها تعقيدا . سوى ان هذه القوانين أكثر تعقيدا وأصعب تحليلا وأقل خضوعا للتجربة والاثبات المباشر النهائي الرياضى . وعلما بها جبرى فيه كثير من القوانين الثابتة ولكنها من النوع الجبرى الذى يتمثل فى قولك (س + ص)^٢ = س^٢ + ص^٢ . دون أن يكون علمك بهذه الرموز كاملا . كذلك علمنا بقوانين الحياة قد يكون صحيحا رغما مما يكون فى علمنا بتفاصيلها من نقص .

الفجوة الثانية

كانت الفجوة الأولى بين المادة والحياة . والفجوة الثانية هى التى بين الحيوان والانسان . وهى أعمق وأغمض من الفجوة الأولى . وذلك لأن ما نجهل من الحياة أكثر مما نجهل من الماديات . ولأن الانسان هو الكائن الوحيد على الشاطيء الآخر من الفجوة .

وقد بينا أن ثمة صفة خاصة فى ذرة الكربون جعلتها تقبل التعقيد الكيمائى البالغ الذى سمح بوجود الجزيئات الضخمة القابلة للحياة . وكأن هذا هو الجسر الذى عبرنا عليه الفجوة بين المادة والحياة . أما الفجوة الثانية وهى التى بين الحيوان والانسان فان عبورها سيكون عن طريق القوة الخاصة التى تتمتع بها خلايا الجهاز العصبى . فهى فى الواقع

أكثر الخلايا قابلية للتعقيد والتضخم . وهذا التعقيد هو الذى جعل نشأة المخ الانسانى ممكنة . وهو الفرق الأكبر بين الحيوان والانسان . وعلى ذلك يكون الانسان هو الحيوان الذى نما جهازه العصبى نموا خارقا . كما كانت الحياة هي المادة التى نمت مركبات الكربون فيها نموا خارقا . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن ذرة الكربون شذت عن غيرها من الذرات بقدرتها على تكوين عدد لا نهاية له من المركبات فكانت الحياة . وكذلك شذت الخلية العصبية عن غيرها من الخلايا بقدرتها على النمو نموا خارقا باتحادها مع مثيلاتها . وبذلك تكونت الفصوص المخية الخاصة بالانسان . وليس الشذوذ فى كلتا الحالتين صدفة أو عفوا . ولكنه من غير شك نتيجة تركيبية داخلية خاصة بذرة الكربون والخلية العصبية . والمخ هو عضو العقل كما تكون العين عضو البصر . على فرق بينهما أن العلاقة بين فسيولوجيا العين والبصر واضحة . على حين أن المطابقة بين فسيولوجيا المخ ووظيفة العقل ليست واضحة تماما . ولا تزال فسيولوجيا المخ فى حاجة الى كثير من الدرس . وقد كنا حتى الأعوام القليلة الأخيرة على جهل تام بكنه فسيولوجيا المخ وخاصة المادة السنجابية فيه . فقد عملت عمليات قطعت فيها الصلات

التشريحية بين هذه المادة والجسم فلم يفقد الانسان ذاكرته
أو علمه . وان كانت شخصيته تتغير على نحو ما . وتبين أنه
اذا كانت مراكز الحركة والاحساس فى المخ محددة الى درجة
أن استئصالها يفقد الجسم الحركة أو الاحساس فى جزء بعينه
من الجسم فان الفص الأمامى لم يكن يعمل على هذا النحو .
فلم يحدث أن فقد الانسان علمه بشىء خاص عندما يستأصل
أى جزء من الفص الأمامى . هذه التجارب دليل على أن
فسيولوجيا المخ لم تكن فيزيائية ولا كيميائية ولا تشريحية .
ولم يستطع أحد أن يتبين طبيعة هذه الفسيولوجيا حتى وقت
قريب جدا عندما كشفت الخواص الالكترونية . وهذه
الخواص الالكترونية تمهد السبيل الى فهم فسيولوجيا المخ
وعلاقتها بسيكولوجية العقل .

ويجب أن أسارع الى القول بأنه لم يثبت بعد ثبوتا قاطعا
أن عمل المخ الكترونى صريح . ولكن فسيولوجيا المخ من
غير شك تقوم على قوة ان لم تكن الكترونية فعلا فهى قريبة
جدا منها . وقد سبق أن أشرت الى أن انقسام الخلية منظم
تنظيما لا يمكن تصوره على أساس كيميائى أو فيزيائى .
ولكنه مما يمكن تصوره على أنه الكترونى . كذلك القوة
العقلية التى يستطيعها المخ انما يستطيعها بقوة شبيهة غاية
الشبه بالقوة الالكترونية .

وانبدأ بدرس الجهاز العصبى فى الحيوان . ولا شك
أنة أصل الالهام فى الحيوان . فالفرخ حين يخرج من
البيضة يبحث عن غذائه فيحفر الأرض بقدمه ويختار
ما يصلح له غذاء . وأسهل تفسير لذلك هو أن تفرض أن
تركيب الاتصالات العصبية ^(١) يسمح لهذه العملية أن تتم
على النحو الذى نراه . فهو علم عن طريق تشريحي كما يكون علم
خلية المعدة بالهضم ولا يزيد على ذلك شيئاً . وهذا العلم
الناشئ عن التركيب الخلقى للجهاز العصبى البسيط هو الالهام
أما الجهاز العصبى الذى يكون أكثر تعقيدا فان قدرته تكون
أكبر مثل ذلك مثل الربابة التى فيها وتر واحد ونعمة واحدة
أو اثنتان والآلة ذات الأربعة أوتار المتعددة النغم . آلتان
من طبيعة واحدة ولكنهما يختلفان فى قدرتهما على احداث
الأنغام المختلفة . كذلك الجهاز العصبى فى الفرخ
والانسان . يختلفان اختلافا بالغا . ولكن طبيعة الجهازين
واحدة فى الحيوانات الدنيا والعليا . الجهاز العصبى البسيط
يؤدى الى الالهام ، كما يؤدى الجهاز العصبى المعقد الى
الذكاء .

الالهام يقوم على أساس تشريحي خلقى . وهو من نوع

Synapses (١)

الانعكاس العصبى وهو وان يكن انعكاسا معقدا الا أنه أبسط من أن يجعل للحيوان مرونة أو استعداد لكسب الخبرة والمعرفة . والمعرفة التى يكتسبها الحيوان قليلة جدا لأن تركيب جهازه العصبى بسيط صغير لا يسمح باختران المعلومات الناشئة عن الحياة ، وترتيبها ترتيبا يجعل منها خبرة وعلم . وبعبارة أخرى نقول أن المسالك الالكترونية التى يستطيعها الحيوان خلقية فيه وهى أساس الالهام . ولا تسمح حالتها البدائية بتكون مسالك جديدة من جراء تجارب الحياة الا الى درجة ضئيلة جدا . ولا بد لاختزان التجربة من مسالك عديدة كالتى نراها فى المخ الانسانى . وهو بهذه المسالك والتعقيد والتضخم يكتسب قدرة تختلف تماما عن الالهام واما يستطيعه الجهاز العصبى البدائى فى الحيوانات .

هذا هو المعنى العلمى للالهام والذكاء . والالهام يكون فى الانسان كما يكون فى الحيوان وهو ما يستطيعه من جراء التركيب الخلقى لجهازه العصبى . والذكاء هو ما يستطيعه من جراء المسالك الالكترونية التى تتكون فضلا عن ذلك من جراء اختزانه الخبرة والعلم .

الإنسان

ليس الانسان بدعا في الكائنات الحية . وليس الانسان بمعزل عن النظام الكونى . بل هو مخلوق يمكن «استنتاجه» من النظام الكونى دون كبير عناء . فاذا كان تعقد تركيب جزيئات الجماد جعله قابلا لاستقبال قوانين الحياة ، وكان الكائن الحى هو تجسيم هذه القوانين فان زيادة التعقيد فى تركيب الحيوان جعلته قابلا للقوانين الانسانية وأصبح الانسان هو تجسيم هذه القوانين . وقد كادت زيادة التعقيد هذه تكون مقصورة على نمو الجهاز العصبى — المخ وملحقاته من غدد وأعصاب — نموا بالغا وعلى ذلك يكون الفهم الحق للانسان متوقفا على فهمنا للمخ الانسانى فهما كاملا . وعلينا أن ندرس المخ من عدة جهات . من حيث هو عضو له فسيولوجيا خاصة به . وعلاقة هذه الفسيولوجيا ببيكولوجيا العقل . وهل هذه الفسيولوجيا تصلح تفسيرا كاملا لهذه السيكولوجيا . ثم من حيث هو جهاز متصل به الصفات الانسانية الخالصة التى تقوم على الاحساس بالمعنويات مثل تقديرنا للجمال وخضوعنا للقوانين الخلقية

أوامرها ونواهيها ، وكيف تكون هذه القوانين من عمل المخ، وهل شخصية الانسان يمكن أن تكون أيضا من عمل هذا العضو . ثم بعد ذلك يكون البحث فيه من حيث هو جهاز المعرفة . حتى اذا تم لنا ذلك كله استطعنا أن نضع الانسان موضعه الحق من النظام العالمى .

وإذا أردنا أن يكون هذا البحث منظما فلا مناص من البدء ببحث القضية الآتية : هل نستطيع أن نثبت أن المخ ، من حيث هو عضو فى جسم الانسان يؤدي وظيفته كالكبد والقلب سواء بسواء ، قادرا على القيام بكل ما هو انساني خالص . وبعبارة أخرى هل يسمح تركيب المخ له أن يقوم بوظائف الذاكرة والخبرة والعلم والحكمة والارادة ثم بالحج وتقدير الجمال والأخلاق والايمان والضمير ؟ ان كان تركيب المخ وخواصه تسمح له بذلك كله فلا داعى لفرض وجود قوى أخرى غامضة غريبة عن ما نعرف من قوانين الكون كالنفس مثلا . أما اذا كان تركيب المخ لا يكفي لتفسير الخواص الانسانية العليا فلا بد من فرض وجود قوى خارجية (فانا لا ندرى لها مكانا فى الجسم) تجعل الانسان انسانا .

وعندما كانت كل القوانين المعروفة لنا تنحصر فى القوانين الفيزيائية والكيميائية كان من المستحيل أن تفسر الذاكرة أو

الحب أو الضمير على أنها نتيجة لتغيرات كيميائية أو فيزيائية في المخ . فهذه لا يمكن أن تبلغ من الدقة الحد الذى يكون فيه لكل فكرة أو احساس معنى مادة كيميائية خاصة به ، أو ضغط كهربى خاص . ثم ان الأعمال العقلية العنيفة لم يصحبها زيادة فى استهلاك الأوكسجين مما يدل على أن العمليات العقلية ليست كيميائية . ومن المستحيل أن تصور انشاء شعر جميل على أنه عمل كيميائى فيزيائى . لذلك كان حتما على العلماء أن ينبذوا الرأى القائل بأن تركيب المخ هو أصل وظيفة العقل .

ثم كشف العلم عن قوة أخرى تستطيع أن تفسر لنا كيف يكون المخ الانسانى المحدود الحجم المعروف تشريحه على أدق وجه كيف يكون مسرحا للمعنويات الانسانية التى لا حد لأنواعها ولا نهاية لتقلباتها . تلك هى القوة الألكترونية . فقد تبين لنا أننا نستطيع أن نؤثر فى المواد تأثيرا لا يغير من كيميائها ولا من فيزيائها ولكنه مع ذلك يرتب الكتروناتها ترتيبا ثابتا يختزن به هذا التأثير ويستعاد عندما يراد ذلك . وأبسط مظاهر هذه القوة هو ما نراه فى شريط التسجيل ذلك أننا نستطيع بجهاز خاص أن نؤثر فى قطعة من المعدن تأثيرا لا يغير من كيميائه ولا فيزيائه وإنما يرتب الكتروناته ترتيبا خاصا بهذا المؤثر . ويظل هذا الترتيب ثابتا ما لم يغيره

عامل أقوى . ونستطيع أن نستعيد هذا المؤثر عن طريق الترتيب الإلكتروني الخاص به والذي أحدثه من قبل . وهذه هي الذاكرة بعينها . وأكرر هنا أننا لا نقول بأن عمل المخ الإلكتروني خالص من نوع الشريط المسجل . فانا لا نعلم كثيرا عن الإلكترونيات الخاصة بالمواد العضوية عامة وبمادة الخلايا العصبية خاصة . ولكننا نقول أن الذاكرة يمكن تفسيرها على أساس شبيه بالإلكترونيات .

وإذا قبلنا هذه النظرية فإن الطريق تكون قد فتحت ممهدة واسعة لقبول الرأي القائل بأن تركيب المخ يصلح أساسا لسيكولوجيا العقل . وهو ما لم يكن يستطيع أحد أن يقول به قبل أن نعرف الإلكترونيات . وعدد الإلكترونيات التي يحتوى عليها المخ والترتيبات التي يمكن أن يكون عليها هذا العدد الضخم من الإلكترونيات يكفى من غير شك لاختزان كل ما يمكن أن تعيه الذاكرة . فكل ما يحدث للإنسان يمر عن طريق حواسه الى المخ على نحو يستطيع أن يؤثر في إلكتروناته فيحدث في ترتيبها تغييرا خاصا بهذا الحادث . ويظل هذا الترتيب حتى نحتاج الى ابرازة بعملية عكسية . على هذا النحو يمكن تفسير كثير من خواص الذاكرة . وكيف أن الانسان قد يفقدها جملة من أثر صدمة

عيفة . وقد يفقد جزءا منها عقب اصابة للرأس . وكيف أن أجزاء من المخ قد تستأصل فلا تتأثر الترتيبات الألكترونية فى الأجزاء الأخرى ولا يفقد من الذاكرة شىء . الى غير ذلك من التفصيلات التى تجعل المطابقة بين الذاكرة والقوة الألكترونية أو ما يشبهها مطابقة تكاد تكون تامة .

هذه القوة الكبرى للعقل الانسانى قوة الذاكرة يمكن فهمها فهما تاما على أساس أن أصلها التركيب الخاص بالخلايا العصبية فى المخ . ويتبع ذلك حتما أن نفس هذا التركيب هو أساس العادات الانسانية والخبرة وهو أساس امكان التربية . والمسالك الألكترونية فى المخ تنمو وتتعدد وتتنوع حسب تكوينها الأصلى أولا وحسب ما يعترضها من مؤثرات الحوادث أو التعليم ثانيا . ومجموع هذه المسالك وعلى قدر تشعبها وتنوعها يكون الذكاء .

سيقول المعارضون أنه على فرض أن الذاكرة وما يقوم عليها يمكن تفسيره كله على أساس التركيب الخلوى للمخ فان فى العقل صفات أخرى لا تتعلق بالذاكرة الصريحة التى شرحناها . وأهم هذه الصفات تقدير الجمال والحب من ناحية والقيم الأخلاقية من ناحية أخرى . والبحث عن الأصل المادى للحب والجمال والأخلاق لا يزال أمل أولئك الذين يسمون

— ظلما — بالماديين . ولا يزال الكثيرون يعتقدون أن هذه الصخور هي التي يرتطم عليها كل مذهب فلسفى لا يقدر أن هناك خاصيات عليا فى الانسان لا يفسرها تشريح أو فسيولوجيا مهما تكن دقيقة شاملة .

ومن الظلم أن يقال للمذاهب العلمية الحديثة انها مسرفة فى المادية . واذا صدق هذا على علم القرن التاسع عشر فهو من غير شك لا يصدق على علم القرن العشرين . ولا أود أن يوصف النظام التفكيرى الذى أتناوله بالمادية . والذين يتبعون هذا البحث الى آخره سيرون اعترافا صريحا بوجود ما فوق الانسان . الا أن هذا الاعتراف لا يخالف القول بأن حياة الانسان كلها مادية كانت أو معنوية ليست الا نتيجة طبيعية لوظائف أعضائه . ومنها المخ الذى يتعلق بوظيفته كل ما هو انسانى خالص . ولكن كيف يؤدي المخ هذه الوظيفة ؟ هذا ما لم يكن يتصوره انسان قبل الكشف عن القوة الألكترونية التى تتغير وتختزن التغيرات دون تغير كيميائى أو فيزيائى . الواقع أن كل مؤثر خارجى يخلق بواسطة حواسنا مسالك الكترونية فى المخ . وهذه المسالك نفسها تصبح طريقا معبدا للمؤثرات التى تحدث بعدها فتسير فيها . وقد تعترض طريق مؤثرات أخرى فنقف فى طريقها . وقد

يمل القارئ تكرار قولى أنى لا أدعى أن القوة الألكترونية
حل نهائى لوظيفة المخ ولكنى أقدمها أو ما يشبهها دليلا على
امكان قيام المخ بوظائف الانسان كلها حتى المعنويات منها .

وإذا كان هذا التفسير صالحا لشرح الذاكرة وما يتبعها
من قوى تتعلق بها مباشرة مثل العادات والخبرة والعلم
بالماضى فقد لا يكون ذلك كافيا لشرح عواطفنا التى تمثل
فى الحب والكراهة واعجابنا بالجمال وتقديرنا له وحبنا إياه .
على أن الأمر فى ذلك قد يسير على النحو الآتى . يحدث
حولنا أمر تدركه حواسنا سمعا أو بصرا أو شما أو لمسا
أو ذوقا . فإذا كان هذا الأمر منظما ، وصادف نظامه توافقا فى
نظام الأعضاء الخاصة به كالعين أو الأذن الداخلية فإن ذلك
يحدث فيها حركة منظمة . وتنتقل هذه الحركة المنظمة
الى المخ فتجد فيه مسالك الكترونية خلقية أو مكتسبة .
فإذا صادف أن توافق نظام هذه المؤثرات مع نظام هذه
المسالك التى فى المخ تم تسجيل هذا المؤثر على نحو منظم
دون أن يصطدم بعقبات أو مسالك مغلقة تضطرب عندها
هذه الموجات . عند ذلك يحدث لنا السرور . وتنشأ الرغبة
فى تكرار هذا الاحساس وتنشأ عندنا عاطفة الحب لهذا
الذى كان السبب فى هذا الأهتزاز المنظم الذى يسير فى

مسالك مهياة له . هذا تفسير محتمل للأصل المادى للحب والجمال . ويرى من هذا أن النظام هو أساس معرفتنا للجمال . وليس أدل على أن هذا النظام هو أصل سرورنا بالجمال من الموسيقى . فلو أن النغم لم يكن منظما ولو أنه وقع على أذن داخلية لم تنتظم أوتارها انتظاما يوافق النغم . ولو أن الموجات الصاعدة الى المخ لم تصادف طريقا الكترونيا معبدا اما خلقيا أو بالمرآة والتلقين لما كان لنا من ذلك سرور . وكل هذه الفروض واضحة جدا فى سرورنا بالموسيقى . فالنغم غير المنظم لا يمكن أن يكون مصدر سرور . والنغم الجميل عند الكثيرين قد لا يدرك جماله من لا تكون أوتار أذنه مهياة لذلك . والتهديب والمرآة ضروريان لتقدير الأنواع المختلفة للموسيقى . ومن تهيات مسالك مخه لنظام معين لا يرى فى النظام الآخر جمالا . وقد تكون الفروق بين الموسيقى الغربية والشرقية أعمق من أن تكون مجرد عادة أو تهذيب . وقد تكون الأوتار الداخلية للأذن الشرقية لا توافق نظام النغم الأوروبى فلا يكون سرور الشرقى به طبيعيا .

ويبدو أن هذا التفسير أو ما يشبهه غير بعيد الاحتمال فيما يتعلق بجمال ما ندرك بحواسنا . ولكن تطبيق ذلك على

الجمال الذى تدركه بالتفكير وحده قد يكون عسيرا .
وعلينا أن نبحث هل يمكن أن يكون مثل هذا النظام قائما
فيما يتعلق بالجمال فى المعنويات والأخلاق .

ويجب علينا أن نقدر أن وظيفة المخ ليست مقصورة
على اتجاه واحد من الخارج الى الحواس الى الأعصاب الى
خلايا الجهاز العصبى الرئيسى . ليس هذا النظام الذى
شرحناه آتفا هو وحده الذى يوجد فى المخ وليست وظيفته
الوحيدة أن يستقبل ويخترن . بل أن له حياة داخلية .
وهو فرق كبير بين أى جهاز الكترونى صناعى مهما عظم
والمخ الانسانى . ذلك أن تفاعلات الحياة فى الخلايا تخلق
تيارات تسلك المسالك التى مهدتها لها الطبيعة أولا والتى
مهدتها لها العوامل الخارجية ثانيا . ثم هى تغير من هذه
المسالك أيضا على قدر قوتها أو ضعفها وتوافقها أو اختلافها
وعلى قدر توافقها مع المسالك الداخلية التى يحدثها وجود
الحياة فى خلايا المخ . هذه التفاعلات الجديدة تكون التفكير
والارادة . وهى من عمل حياة الخلايا نفسها وهى تتأثر
بالمسالك القديمة وتؤثر بدورها فى هذه المسالك .

بين التفاعلات الناشئة عن روافد المخ ، وبين التفاعلات
الناشئة عن المخ نفسه تنشأ تفاعلات فى اتجاه مضاد

يخرج من المخ الى أعضاء الحركة والعمل وهذه التفاعلات الصادرة مثل الواردة تسلك مسالك خلقية أو مكتسبة . وكثيرا ما تكون الانفعالات الواردة هي التي تحدد طريق الانفعالات الصادرة . على كل حال ينشأ تيار جديد يحدد أعمال الانسان . هذه الأعمال يجب أن تكون منظمة وأن تتبع المسالك الألكترونية المهيأة لها دون اصطدام أو توقف أو قسر . مثل هذه الأعمال يستريح اليها الانسان ويطمئن اليها كما كان يسره من قبل أن يتبع التيار الوارد الى المخ مسالك مهيأة منظمة . هذه الأعمال التي تكون منظمة في أصلها والتي تسلك مسالك موائمة والتي يستريح اليها الانسان هي الفضائل .

وسنجد أن أكثر الفضائل تدل عليها أعمال مصدرها الفكرى منظم . فالصدق نظام والكذب فوضى . والأمانة نظام والخيانة فوضى والشجاعة نظام والرعب فوضى . الى غير ذلك من الأمثلة العديدة . فاذا تعلقت ارادة الشخص بعمل يبدأ في خلايا مخه منظما ويسير في مسالك منظمة ويؤدي الى عمل منظم . فهذا هو الخلق الجميل .

وهناك أعمال تصدر عن المخ تكون في أصلها منظمة ثم تسير في مسالك الكترونية منظمة سبق أن هياها في الأصل

قبولنا للجمال . هذه الأعمال تكون بالطبع جميلة . وهذا طريق ابتكار الأعمال الفنية . في كلا الأمرين الصادرين عن المخ العمل الفني والأخلاق الكريمة صفة غالبية هي النظام وذلك ما وجدناه في الجمال وما سنجده في المعرفة . فالنظام في الواقع هو الصفة الغالبة على كل ما يتصل بالمخ من صفات فسيولوجية أو سيكولوجية .

يمثل هذا الشرح نستطيع أن نقول أنه ليس من المستحيل أن يكون هناك أصل طبيعي — ولا أقول مادي — للحب والفن والأخلاق . على أن من الأخلاق الفاضلة نوعا غير ايجابي ، هو الامتناع عن عمل أشياء محببة الى الانسان تثير فيه السرور ، وأخرى لا تؤذيه ، وأخرى قد يصيبه منها خير . ويكون هذا الامتناع عما نسميه جملة المحرمات دون ارغام أو ضغط أو جزاء واضح أو خوف مرتقب . بل يكون هذا الامتناع بدافع داخلي نفسي . هذا الامتناع عن المحرمات يحسبه الكثيرون عملا غير طبيعي لأن ارجاعه الى أصل طبيعي يكاد يكون مستحيلا بل يخيل الى الباحثين أن هذا هو العمل الانساني الوحيد الذي لا بد من أن تنسبه الى قوة عليا فوق الانسان .

على أن هناك قانونا عاما له أثره في الكائنات الحية

هو قانون الكبح (١) . وهو قوة ثبت وجودها ودرست درسا وافيا في فسيولوجيا الجسم . وهي أوضح ما تكون في أعمال الجهاز العصبى وان كانت معروفة على درجات مختلفة في أكثر وظائف الكائنات الحية . ذلك أن الطريقة الطبيعية التى يتبعها الجسم فى تنظيم وظائف أعضائه — حيث يكون هذا التنظيم متعلقا بالجهاز العصبى — هى أن يهيب العضو نوعين من الأعصاب أحدهما يزيد فى تسيبه والآخر يهدى من نشاطه . فحركة القلب مثلا يسرعها نوع من الأعصاب فاذا أريد أن يهدأ فلا يكتفى فى ذلك بالاقلال من عمل هذا العصب المنبه بل هناك عصب آخر عمله الأول التهدئة . فالاسراع فى حركة القلب يتم بزيادة فى عمل العصب الأول وضعف فى عمل العصب الثانى . وابطاء القلب يتم بضعف عمل العصب الأول وزيادة فى عمل العصب الثانى . هذا النظام يسمح للقلب أن يتأثر بسهولة حسب الظروف ، وهو فى الوقت نفسه يمنع أن يصل هذا التأثير الى حد الخطر . والكثيرون يظنون أن هذا من خير الأمثلة على العلة الغائية . وقد أنكرناها من قبل . انما يدل ذلك على أن القوتين الأصليتين فى مادة الحياة وهى المرونة والمقاومة تتخذان

مظاهر عديدة . وهذا مظهرهما في هذه الطبقة العليا من الحياة .

وعلى كل حال لا ينازع أحد من علماء الفسيولوجيا في وجود قوة ايجابية هي الكبح في كثير من وظائف الأعضاء . ولما كان المخ عضوا كان من غير المستحيل أن يكون خاضعا لهذا القانون وليس عجيبا أن يكون خضوعه لهذا القانون خضوعا بالغا لأن الكبح أوضح ما يكون في الجهاز العصبي . والمخ هو جماع هذا الجهاز فالكبح فيه يكون واضحا بالغا ويكون من السهل أن تتصوره قائما فعلا في أعمال المخ بما فيها المعنويات والأخلاق . وكل أعمال الانسان يجب أن تؤخذ على أنها ليست من عمل الارادة وحدها ، اذا قويت قام الانسان بعمل ما توحى به واذا ضعفت امتنع ، بل أعمال الانسان كحركة القلب توازن بين الارادة الفاعلة والكبح . وفي هذا النظام — كما هي الحال في القلب — ضمان واضح لحسن مواجهة الظروف دون تعرض للخطر . وأن تكن هذه الفوائد بالطبع نتيجة لا سببا لوجود هذا النظام الذي هو من أخص صفات المادة الحية .

قانون الكبح حين يتعلق بالمعنويات هو قانون الضمير . وقد حاولنا أن نثبت أنه قانون طبيعي متسق مع القوانين

الطبيعية والحيوانية . وهو أرقى من جميع القوانين
الانسانية الأخرى . فقد سبق أن بينا عند الحديث عن
التفاضل بين القوانين أنه اذا كان هناك قانونان أحدهما
لا يعمل الا في الأشياء التي سبق أن عمل فيها الآخر فان
القانون الأول يعد أرقى من الثاني . وواضح أن الكبح لا يكون
الا عند قيام التنبيه . وكذلك الضمير لا يعمل الا بعد عمل
الارادة فهو أرقى القوانين الانسانية . فالذكاء والعقل
محركان والضمير هو الكبح وهو لا يعمل الا بعد عملهما .
فهو لذلك يعد قانونا أرقى . ولا يعنى ذلك أنه أكثر فائدة .
فليس القانون الأرقى أكثر فائدة دائما من القانون الأدنى .
فالراهب يخضع لقانون الضمير والكبح خضوعا يبلغ حدا
تشمل معه الحياة المألوفة . وهو بهذا أرقى من الإباحى الذى
لا يحجم عن شىء . وأن يكن من الممكن أن يكون هذا
الأخير أكثر تمتعا بالحياة وأكثر فائدة لنفسه ولغيره .

وأعود هنا الى بعض المذاهب الفلسفية التى ترى فى الضمير
عرفا اصطلاح عليه الناس . أو خدعة من الرسل والقادة
« لتخدير الشعوب » . أو حيلة من المتمتعين يضلون بها
غير المتمتعين . أو على الأقل أنه غير طبيعى . وهم يقولون ان
الناس أحرار ولو عملوا ما يحبون لاستقامت حياتهم على نحو

خير مما هم فيه الآن من ارهاق بالخسوف من المحرمات
والخطيئة . ومن أمثلة ذلك في عصرنا الحديث مذهب الوجودية .
وخيل الى أهله أن هذا مذهب علمي وأن نوعا من الإباحية له
مسوغ عقلي .

كل هذا عندي خطأ . فالضمير هو قانون الكبح وهو أمر
طبيعي حيوي ثابت يتعلق بالمعنويات . وهي أيضا ذات أصل
طبيعي حيوي ثابت . ونصيب الفرد من هذا القانون يختلف ؛
فحيث يكون نصيب الانسان منه كبيرا يكون القديسون
والأولياء والمتصوفون والمتزمتون والفضلاء . وحيث يكون
نصيب الانسان منه قليلا يكون المتمتعون بالحياة والتفميون
وعباد اللذة والإباحيون . ولا يعنيهما خير أو أكثر فائدة
ولكننا نؤكد أن كلا النوعين طبيعي وأن الأولين الخاضعين
لقانون الكبح أرقى من الآخرين . وأن الضمير أرقى قانون
يخضع له الانسان . وهو انساني محض . ولا حاجة بنا الى
التماس قوى عالية خارجة عن الانسان لتسويغ خضوعنا له .
وأرجو أن نكون قد بينا أن التطور أدى الى تكوين
عضو خاص بالانسان له صفات وقوى وقوانين خاصة به وأن
هذا العضو وهو المخ «يفرز» — على حد تعبير الفسيولوجيين
— أو يؤدي الوظائف الآتية .

١ - الذكاء : وهو القدرة على استيعاب أكبر عدد من المؤثرات الخارجية واختزانها وإيجاد مسالك الكترونية تربط بعضها ببعض . وهذا يرجع الى تكوينه الأول وقبوله للمؤثرات بسهولة ومرونة إلكتروناته - أو ما يشبهها - على التأثر والتنظيم وعلى ما يكون فيها من قدرة على «تثبيت» هذا التنظيم وسهولة العودة عن طريقه .

٢ - العقل : وهو أثر الحياة الداخلية التلقائية داخل المخ وهي تتأثر بنظامه الداخلى وبما أدخل عليه الذكاء من تغيير . وبما يكون من تنظيم فى المسالك الألكترونية التي تنقل الاتفاعلات الى الأعضاء العاملة . وإذا كان الذكاء مظهره اتجاه المؤثرات الى داخل المخ فالعقل مظهره اتجاه الاتفاعلات من المخ الى الخارج . والأول تتعلق به العادات والخبرة والتربية ومحوره الذاكرة والثانى تتعلق به أعمال الانسان على اختلاف أنواعها . وفيه تتمثل الارادة والأخلاق الايجابية الكريمة والحكم الصادق والاتجاه الفنى .

وقد نستطيع أن نفسر على هذا النحو أعمال الانسان التي وصفها علماء التحليل النفسى على أنها تنشأ فى العقل الباطن أو ما تحست الوعى . وليس ذلك الا المسالك الألكترونية الباهتة الضعيفة القديمة التي لم نعد ندركها والتي لها بعض الأثر العميق فى تكوين التركيب الألكترونى

العام للمخ . وهذه موجودة في الناس جميعا ولا تصبح مرضية الا عندما تكون رغم ضعفها وعمقها وبعدها سببا في تحويل الموجات الصادرة تحويلا يذهب بها الى غير الطريق المنظم الواضح الصريح .

٣ - الضمير : وهو قانون الكبح وهو عمل طبيعي للمخ تنشأ عنه قوة الامتناع عن المحرمات واما يعتبر خطيئة . وليست الخطيئة نوعية محددة . وليست المحرمات أمورا ثابتة . ولكن يجب على كل انسان أن تكون له أمور يمتنع عنها من تلقاء نفسه . والخطيئة هي ما يحجم عنه الانسان بطبيعة تركيب نفسه . وعندى أن من لا تكون له محرمات ولا يقدر أن شيئا ما يمكن أن يكون خطيئة يظل بالطبع انسانا . ولكنه يكون انسانا ناقصا وتكون حياته المعنوية في خطر يشبه الخطر على القلب حين تقطع عنه أعصاب الكبح ويصبح غير خاضع الا للعصب المنبه .

ولعلنا نكون قد وفقنا بعض التوفيق الى فتح باب يمكن الدخول منه لاثبات أن الضمير شيء طبيعي وأنه أرقى القوانين الانسانية . وأنه محور الأخلاق الفاضلة وأنه عمل من الأعمال الطبيعية للمخ الانساني . ولعلنا نكون بذلك بدأنا أول الطريق التي تؤدي الى ايجاد «الأصل الطبيعي» للأخلاق وهو ما بحث عنه الفلاسفة عشرات القرون .

هذه الوظائف الثلاث التي يقوم بها المخ الانساني —
الذكاء والعقل والضمير — هي جماع كل الصفات الانسانية
الخاصة التي أصبح بها أرقى الكائنات وهذا الرقى ثابت
علميا وليس مجرد زهو انساني دفعه اليه غروره بنفسه .
ويلتقى هذا الوضع العلمى للانسان مع ما قالت به الأديان
من أنه خلق على هيئة الله . وبه تفسر ما أحس به الفلاسفة
من قديم حين قالوا ان القانون الخلقى يرفع الانسان فوق
المخلوقات كلها بما فى ذلك الأفلاك والسموات على ضالة
شأنه المادى .

بقيت للمخ الانساني وظيفة ليست من صميم عمله وكان
فى غنى عنها لو شاء . وهى وظيفة عرضية وليست حتمية .
وليست من ضروريات الوظائف الحيوية التي ذكرناها وهى
وظيفة المعرفة . وهى من الترف الذى صادف العقل فأوغل فيه
واستعذب نتائجه وأصاب منه فوائد كبيرة لم تكن فى أول
الأمر واضحة أو مقصودة أو محتملة . ولا غرابة فى ذلك
كله . فقد رأينا كيف أصبح المخ بخواصه الألكترونية
والكيميائية والفيزيائية والحوية جماع كل هذه القوانين
فى كل ما هو دونه أى فى الكون كله . فلا غرابة أن يكون
نظامه فى الواقع تركيزا لكل هذه القوانين فى صورة مصغرة .
وهو ما عرفه الأقدمون بإحساسهم لا بعلمهم حين قالوا أن

الانسان هو الكون الأسغر . فالخ وهو جماع القوانين الكونية كلها في صورة مصغرة لا يعدو أن يكون عضوا نظامه أقرب ما يكون الى نظام الكون . وكل حدث في الكون أو كل قانون من قوانينه يجد في الخ تجاوبا معه . وتوافق النعم بين الاثنين أمر محتمل جدا . ولما كنا قد بينا من قبل أن التوافق والتجاوب يجلبان لنا سرورا ولذة فإن المعرفة ظلت في جميع العصور مصدر لذة وسرور قبل أن تكون مصدر فائدة .

الى هنا نكون قد وصلنا بالبحث الى ما بدأنا به هذه الرسالة . وهو أن في الكون نظاما وأن في العقل نظاما وأن المعرفة هي المطابقة بين النظامين وأن هذه المطابقة ممكنة وواقعة فعلا ومعقولة وطبيعية . ولعلنا نكون قد حققنا على نحو ما وعدنا به من أن نجد النظام الذي يبدأ بالألكترون وينتهي بالعقل على نسق واحد . وهذا النسق في جملته واضح مهما تختلف تفاصيله .

الفجوة الثالثة

كانت الفجوة الأولى في الكون والمعرفة بين المادة والحياة . وهي فجوة ضيقة واضحة سهلة العبور الى حد ما .

وكان عبورنا اياها عن طريق الخواص التي ركبت في ذرة الكربون . ثم كانت الفجوة الثانية بين الحيوان والانسان . وهي أبعد مدى وأكثر غموضا وأصعب عبورا من الأولى . وكان عبورنا اياها عن طريق القوى الخاصة الكامنة في خلية الجهاز العصبي . وكان معروفا كلا شاطئها الحيوان والانسان . أما الفجوة الثالثة وهي التي بين الانسان ومن فوقه فهي بعيدة الغور واسعة المدى الى حد يجعل عبورها علينا عسيرا جدا . ومهما يزد علمنا بالانسان فان ذلك لن يعيننا على معرفة الشاطئ الآخر لهذه الفجوة الهائلة . ولعل هذا ما دعا الكثيرين الى انكار وجود هذه الفجوة أو بعبارة أدق الى انكار وجود ما وراءها .

هؤلاء المنكرون يرون أن وجود ما وراء الانسان فرض يجب أن يقوم عليه برهان . وهم يقولون أنه من الممكن أن نكون نحن القمة العليا للكون . وأن على الذين يؤمنون بالله أن يثبتوا أن هناك قانونا أعلا من الانسان . ولا يريدون أن يعدوا ذلك من المسلمات الواضحة التي لا يكون فيها نزاع . على أنه اذا كان العقليون يرون أن وجود الله « فرض لسنا في حاجة اليه لفهم الكون » فان فرضهم أن الانسان غاية الكون فرض لا يقوم على أساس . واذا كان الناس قد حاولوا منذ القدم أن يجدوا البراهين على وجود الله فان العقليين يجب

أن يحملوا عبء البرهان على عدم وجوده أو بعبارة أخرى عليهم أن يثبتوا أن الانسان هو القانون الأعلى للكون . الواقع أنه ليس هناك ما يدل على ذلك بل هناك ما يحملنا على الظن بأن هذا ليس من الحقيقة في شيء . ذلك أن أعلا قانون في الكون (أو أعلا شيء فيه) هو الذي لا يؤثر فيه قانون آخر أعلا منه ، وهو الذي تاريخ حياته بيده لا يغيره شيء يعلو ارادته . فهل الانسان يمثل هذا القانون الأعلا ؟ وهل ارادته وحدها هي المتحكمة في حياته . كل الدلائل تدل على أن ذلك يخالف الواقع .

القول الفصل في هذا الأمر الهام يكون بالرجوع الى النظام التصاعدي العام للكون وقوانينه . ومنه يتبين أن فوق كل قانون أو شيء قانون أعلا منه . وقد بينا فيما سبق علاقة القوانين العليا بالدنيا . وكيف أن العليا تتقيد بالدنيا ولكن تاريخ حياة الدنيا يتأثر (قضاء وقدر) بالقوانين العليا . وأن الأشياء الدنيا تعلم بوجود العليا ولكنها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تفهم كنهها وحقيقة أمرها .

العقليون يبنون ثقتهم بأن الانسان أعلا ما في الكون على أن علمه بالكون يزداد يوما عن يوم ، وأنه ليس هناك ما يمنع أن يبلغ هذا العلم غايته يوما ما . وعلى أنهم لم

يدركوا بحواسهم أو عقولهم شيئاً يعلو الانسان . وأن اللجوء الى فرض وجود الله نشأ عن الحاجة الى تفسير ما غمض على العقل . فاذا بلغ العقل غايته فلن يكون هناك ما يدعو الى هذا الفرض .

والمؤمنون يبنون ثقتهم بأن الانسان عاجز عن أن يكون غاية الكون على أنه لا يستطيع الخلق ، وأنه لا بد من وجود خالق . وعلى أن النفس الانسانية شيء لا مفر من الايمان بأنها فيض من كائن أعلا لأن التكوين المادى للجسم لا يفسره . وعلى أن الأخلاق والضمير أمور لا يمكن استنتاجها من تكوين الانسان ما لم يهب الله لنا القدرة على فهمها واتباع أوامرنا ونواهيها . وعلى أن الانسان معرض لكل المؤثرات المادية التي تؤثر فيه بل قد تقضى عليه ولا يستطيع لها رداً وأن ذلك لا يجوز على أعلا كائن في الكون .

وكلا الفريقين يتمسك بهذه الحجج وكلها مردود عليها في بعض نواحيها .

ونحن نرد على العقليين قولهم بأن علم الانسان يزداد حتى ليكاد يبلغ كل مشاكل الكون فيجد لها حلولاً . هذا لا يدل على أنه أعلا ما في الكون . وإنما يدل على أن علمه

بما هو أدنى منه سيبلغ حد الكمال يوما من الأيام . وليس في ذلك غرابة فكل طبقة من القوانين والأشياء تستطيع أن تعلم كل ما يكون أدنى منها (سواء علمته فعلا أم لم تعلمه) وأن ذلك ليس شيئا اختص به الانسان . وأن علمه التام بما هو أدنى منه لا يقوم دليلا على أنه يستطيع أن يعلم شيئا عن ما هو أعلا منه . فهو ليس الا مرحلة من مراحل التصاعد التركيبي للكائنات وعلمه ينحصر فيما دونه . وليس في هذا ما يدل على أنه أعلا ما في الكون بل هو دليل على أنه أعلا ما يعرف هو من الكائنات .

ونرد عليهم قولهم أننا لم نعرف بحواسنا شيئا يعلو الانسان بأن كل كائن لا يستطيع بقوانينه أن يفهم ما هو أعلا منه . وكل ما يستطيعه هو أن يعلم بوجوده وذلك بالتفكير في أثر هذا القانون الأعلا في حياته .

اما أن وجود الله فرض لا داعى له لفهم الكون فمردود عليه بأن المسألة ليست مسألة فرض بل مسألة حقيقة واقعة . فان الحيوان الذى يذبح قربانا لآلهة البدائيين ليس فى حاجة الى فرض وجود الخرافات لفهم ما يدفع الانسان الى ذبحه . وهى مع ذلك موجودة .

اما قول المؤمنين أن النفس والضمير أمور لا يمكن فهمها

من تركيب الانسان فيرد عليه بأنه من الممكن تفسير ذلك ماديا وهو ما حاولناه في الفصول السابقة محاولة ان لم تكن ناجحة تماما فهي على الأقل تدل على أن ذلك غير مستحيل . وهذا يكفي لنقض هذه الحجة القوية . وقولهم أن خضوع الانسان للقوانين الأدنى يدل على عجزه مردود عليه بأن هذه سنة الكون وأنه لا يطعن في رقى أى قانون أن يتقيد بما هو أدنى منه .

وانما الذى يؤيد الجزم بأن هناك شيئا أعلا من الانسان هو أنه ليس المتحكم الوحيد فى حياته . وأن هذه الحياة تتأثر بما لا يفهمه ولا يعرف له كنها وبما هو أعلا منه مما سبق أن سميناه القضاء والقدر . هذا هو البرهان العلمى الوحيد على أن وراء الانسان فجوة ، وأن وراء الفجوة قانونا أعلا .

الله

سبق أن بينا أن لكل شيء ربا وأن رب أى شيء هو القوة أو القانون الذى يعلوه فيؤثر فى حياته . وفى يد رب أى شيء القضاء والقدر الذى يصيب هذا الشيء فيغير من حياته دون أن يغير شيئا من قوانينه الأصلية . وقد سبق لنا فى شرح مذهب تفاضل القوانين أن بينا علاقة ما هو أعلى بما هو أدنى وأثر ما هو أرقى فى ما هو أدنى ثم ذكرنا أنه قد يكون فى هذا المذهب مفتاح نظرية الربوبية وموضعها العلمى من النظام الكونى والتفسير المنطقى للقضاء والقدر .

ولننظر الى رأى الانسان فى الله لتبين هل يتفق هذا ورأى كل شيء فى ربه .

كل ما يستطيع أن يعلمه الانسان عن الله هو وجوده وأن بيده القضاء والقدر . وكل محاولة يبذلها لمعرفة كنهه سبحانه وتعالى محكوم عليها بالاختفاق حتما . أما وجود الله فثابت من أن حياة الانسان والناس مملوءة بآثار قوى لا نعلمها ولو أن الأمر كله الينا ما استطعنا كل الخير الذى نحن فيه ولغيرنا من حياتنا تغييرا كبيرا . وليس هناك ما يدعو

الى ظن الانسان أنه غاية الكون وآخر الكائنات وأرقاها
وأنه ليس وراءه شيء . ووجود الله والقضاء والقدر أمران
متلازمان والقضاء والقدر هو أثر وجود الله في أعمال
الانسان . الى هذا الحد يمكن أن يتفق الناس جميعا .
فالقضاء والقدر موجودان ووجودهما دليل على وجود
قوة عليا وقانون أرقى منا فهما بذلك .

هذا هو كل ما هو ثابت أو ما يمكن اثباته علميا .
اما ما عدا ذلك من صفات الله فهي عمل انساني محض . مثل
ذلك مثل الرجل الذي يقف والشمس من ورائه وظله أمامه . وجود
الظل يثبت وجود الشمس ولكنه لا يدل على صورتها مطلقا .
وصورة الظل صورة الانسان حين تعمل فيه الشمس وليس
فيها ما يدل على صفة الشمس . ونحن حين نؤمن بالله انما نفتتح
بوجوده اما ما نقول عن صفاته فهو من غير شك وصف بلغة
الناس وهذه الصفات محدودة بما هو في متناول العقل الانساني
وأكثرها أشبه بالصفات الانسانية منه بالصفات الالهية
التي ستظل بالنسبة اليها أمرا مجهولا تماما . ونحن نصفه سبحانه
وتعالى بتمام العلم والقدرة وهذا طبيعي ولو لم يكن كذلك لكان
أقل من الانسان . ولو كان غير تام العلم والقدرة ما استطاع
أن يؤثر في حياة الناس . ولكن هذا العلم التام وهذه القدرة
التامة لا تتعلق بما هو أدنى منه . فهو لا يغير من قوانين

الكيمياء أو الفيزياء أو قوانين الحياة بل هو لا يغير من
قوانين الانسان وان أثر في حياته .. شأنه في ذلك شأن كل
قانون أعلى أو قوة عليا في الأشياء الخاضعة لقوانين أدنى .
فالعلاقة بين الله والناس والعلاقة بين الناس والله علاقة تشبه
من كل وجه علاقة الأشياء العليا بالدنيا وعلاقة الأشياء
الدنيا بالعليا . العليا لا تغير من قوانين الدنيا وانما تؤثر في
حياتها . والدنيا تعلم بوجود العليا ولكنها لا تفقه شيئا من
حقيقة أمرها .

ونعيد هنا ما قلناه من أن ما يطلق عليه الناس كلمة
القضاء والقدر يختلف عن مدلولها في بحثنا هذا . فاذا
أصابت ساعة رجلا فان ذلك يعد عند بعض الناس قضاء
وقدرا . وليس كذلك . لأنه عمل من أعمال قانون الفيزياء
وهو قانون أدنى في كائن خاضع لقانون الحياة وهو قانون
أعلى . وانما يكون قضاء وقدرا بالنسبة للانسان أن يصيبه
خير أو شر من غير سبب يعلمه أو عمل يقوم به في سبيل
ذلك .

ولعل هنا مقام الحديث عن الاختيار والجبرية . وأمرهما
سهل في النظام الذي وضعناه . فكل شيء حر في عمل ما يريد
في دائرة حدود القوانين الخاصة به . ولا تعارض بين هذا

وبين السببية . فلكل شىء سبب . ولكن الحياة المعقدة للكائنات بالحياة . والتركيب المعقد جدا للانسان يجعل الاسباب الواحدة تؤدي الى عدة نتائج . وما دامت النتائج تتفق وقوانين الكائن الحى فهو حر فى اختيار أى من هذه النتائج . وهو مجبر فى كل ما عدا ذلك . على أن التعقيد البالغ فى تركيب المخ يجعل دائرة الاختيار فى الانسان أوسع منها فى الحيوان وهى فى الحيوان أوسع منها فى النبات . وهى تكاد تكون معدومة فى الماديات وان يكن بعض العلماء يرى أن الألكترون حر فى حركته داخل الذرة على غير نظام ثابت ولكنه لا يرتكب حركة تخرجه عن قوانينه الألكترونية والذرية .

وقد سبق أن قلنا أننا أوفينا بعهدنا الأول وهو الترقى من الألكترون الى العقل . والآن نفى بالوعد الثانى وهو أن تتدرج من النور الى الله . كل ذلك فى نظام ان لم يكن كله معروفا فان تنسيقه العام يكاد يكون واضحا أوله وآخره وقد يكون فيه نقص كثير . الا أن هذا النقص لا يغير من الصورة العامة التى حاولنا جمعها تحت عنوان واحد هو وحدة المعرفة .

حلول جديدة لمشاكل قديمة

نظرية تفاضل القوانين ووحدة النظام الكونى العام القائم على ازدياد التعقيد التصاعدي فى تركيب الأشياء من أصول قليلة العدد أو من أصل واحد ، نظرية علمية تصر ما هو غامض ومجهول ومعقد بما هو واضح ومعروف من الأمور البسيطة نوعا . وهى نظرية لا يعنينا منها ألا أن تكون مطابقة للواقع . على أننا نجد لها فضلا عن ذلك مزيّتين ، الأولى أنها تساعد على حل مشاكل عديدة ما زلنا فى حاجة الى حلها حلا عقليا . وهذا ما يعرف فى العلوم الطبيعية «بخصب» النظرية . وهو من البراهين العرضية على صحة النظريات العلمية . والثانية أنها تساعد على أن نسقط من المعرفة ما يكون فيها من آراء تخيلية لا أصل لها الا حاجة العقل الانسانى الى ملء كل فراغ فيه .

وصورة الكون والمعرفة التى تؤدى اليها هذه النظرية صورة ثابتة الأساس وصحيحة الأركان مستقيمة التكوين واضحة النظام رغم ما فيها من فجوات . وقد بينا أن هذه الفجوات على كثرتها لا تحجب النظام العام .

ولم تكن هذه الصورة ممكنة قبل أن يكشف العامل
الأكتروني في الكون . وذلك أن القدماء الذين لم يعلموا
الا الصفات الفيزيائية كاليبس والرطوبة والحرارة والبرودة ،
والذين لم يعلموا من المواد الا الماء والهواء والنار والتراب ،
حاولوا أن يقيموا صورة متسقة للكون على هذه الأسس
فكانت صورة ناقصة بعيدة كل البعد عن الحقيقة . ثم كان
العلم بالكيمياء ، فحاول العلماء أن يفهموا الكون على ضوء
هذا العلم ، فكانت صورة أتم وأعمق وأقرب الى الحقيقة .
الا أن العلماء أسرفوا في محاولاتهم اخضاع الظواهر
الكونية للقوانين الكيميائية بعد أن عجزت الفيزياء وحدها
عن تفسير هذه الظواهر . وأخذ الكثيرون يرون أن الحياة
ليست الا ظاهرة كيميائية معقدة . والبحث يدور الآن في
الأصل الكيميائي للحياة . وقد وفق العلماء في بحثهم هذا
الى حقائق كثيرة ولكنى أعتقد أن انقسام الخلية ، وهو
جوهر النظام الحيوى ، سيظل عقبة فى تفسير الحياة تفسيراً
كيميائياً بحتاً .

وبلغ هذا الاسراف حداً غير معقول حين حاول العلماء
أن يفسروا خواص الحيوانات وسلوكها تفسيراً كيميائياً .
فمن ذلك دعواهم أن سلوك الحيوان والانسان يخضع
خضوعاً تاماً للتأثير الكيميائى للهورمونات العديدة التى

تفرزها الغدد الصماء . وقاموا بتجارب كثيرة لاثبات ذلك .
فأخذوا ديكاً متخاذلاً ضعيفاً وحقنوه بهورمونات خاصة
فأصبح عنيفاً معتدياً . وأخذوا نحلة من العائلات وأعطوها
غذاءً خاصاً فصارت يسوبها وقالوا ان الحيوان يفرز مواد
كيميائية حين يهاجم فيصبح مهياً للقتال أو الهروب . وقالوا .
ان الانسان متفوق بغيره على الحيوان كما تفوق بعقله .
الى غير ذلك من النظريات المعروفة . ولكنهم عجزوا عن
تفسير الالهام في الحيوان وعن تفسير كل ما هو انساني
محض تفسيراً كيميائياً . ومن المستحيل أن نفسر الذكاء
أو الذاكرة أو الحب أو الفضائل أو الايمان تفسيراً كيميائياً .
ومن المستحيل أن تكون كل فكرة أو كلمة أو عمل يعمله
الانسان أثراً من آثار مادة كيميائية خاصة .

وحاول بعض العلماء أن يثبتوا أن هذا العجز نقص في
علمنا بدقائق الكيمياء . أما غيرهم فقد أدرك أن هذا العجز
عجز حقيقي وأن التفسير الفيزيائي الكيميائي لهذه الأمور
مستحيل وأنه لا بد من فرض أمور عليا هي أصل المعنويات
الانسانية التي لا سبيل الى انكارها . ولا نزاع في أن اصرار
بعض علماء القرن التاسع عشر على الايمان بالأصل المادي لكل
ما في الكون بما في ذلك الانسان حين كان عليهم مقصوراً

على الكيمياء ، كان اصرارا لا مسوغ له بل كان في الواقع خطأ .

وقف العلم عند هذا الحد وقفة طويلة . ولم يكن له أن يتخطى هذه العقبات الواضحة أو أن بدحض حجج معارضية الا أن يكشف عن قوة جديدة تحدث أثرها في الأشياء دون أن تغير من كيميائها شيئا . ولم تعرف قوة لها هذا الأثر الا حين كشف العلماء الالكثرونات . وعرفوا وجودها في المواد كلها عضوية كانت أو غير عضوية ، حية كانت أو جمادا حيوانية كانت أو انسانا .

بهذا الكشف الجديد يمكن لنا أن نتعمق الظواهر الكونية كلها الى حد أبعد كثيرا مما استطاعته الكيمياء ، وهذا التعمق شبيه بما حدث للعلم حين كشف عن الحقائق الكيميائية فأصبح علمه بالكون أعمق وأدق وأقرب الى الحقيقة . ولم تكن نظرية تفاضل القوانين قابلة للاثبات حين كنا نجهل هذا القسم الكبير من القوانين الكونية مع تغفل آثاره في كل ظاهرة من أول الذرة الى الانسان .

وسنحاول في هذا الباب أن نفسر بعض المشكلات القديمة التي لم تزل في حاجة الى تفسير عقلي . وسيضطرننا ذلك الى تكرار كثير مما ذكرناه في الأبواب السابقة .

وأول المشاكل التي يمكن حلها على أساس نظرية تفاضل القوانين هي مشكلة اثبات وجود الله . هذه هي المشكلة الوحيدة التي تعلق الانسان . أما ما عداها فهو من المشاكل الانسانية وأن اتصل بعضها بما فوق الانسان كما هي الحال في البحوث الدينية .

وقد بينا في باب الربوبية عامة ورب الانسان خاصة أن وجوده سبحانه وتعالى أمر يتفق والنظام الكوني العام . وأنه لا يمنع من اليقين بهذا الوجود الا أن يقوم الدليل على أن الانسان أعلى الكائنات وأنه المتحكم وحده بإرادته في تكييف حياته وهو ما لم يثبت بعد . وكذلك بينا ان الانسان يستطيع أن يعلم بوجود الله دون أن يستطيع فهم كنهه بحال من الأحوال الا أن ينقل من صفاته هو ما يتصور أنه عند كماله يكون من صفات الكائن الأعلى .

أما المشاكل الانسانية التي تفسرها نظرية تفاضل القوانين فكثيرة ولعلنا نستطيع لأول مرة أن نجد الأصل الطبيعي لمعنوياته . هذه المعنويات التي لم يكن هناك سبيل الى تفسيرها تفسيراً عقلياً من قبل . وقد بينا فيما سبق أن المعنويات هي القانون الأسمى الذي يخضع له الانسان . ولا يخضع لها غيره . وهو مانعني حين تقول أن المعنويات أرقى القوانين وأن الانسان أرقى الكائنات التي نعرفها . وأن

كل ذلك لا يعنى أنه أرقى الكائنات كافة . هذا ما تدلنا عليه
نظرية تناضل القوانين وعلى هذا الأساس يكون الوضع
الحق للانسان والوضع الحق للمعنويات .

المعنويات هى النتيجة الطبيعية للنظام القائم فى تكوين
جهازنا العصبى وليس صحيحا ما يقول به بعض المفكرين
من أن معنويات الانسان أمر اصطنعه فخلق لنفسه بذلك
صعوبات فى حياته ما كان أغناه عنها لو أنه عاش عيشة
طبيعية (وهى عندهم الحياة الحيوانية البحتة) . وليست
المعنويات وسيلة اتخذت لحماية نظام اجتماعى بعينه . وليست
المعنويات عرفا اصطلاح عليه الناس أو حملهم عليه بعض
المفكرين دون أن يكون لها أصل طبيعى . هذه آراء قديمة
لا تتفق مع ما نعلمه من قوة هذه المعنويات وثباتها . والواقع
أن المعنويات أثر من آثار النظام الخلقى الثابت فى المخ
الانسانى وهذا النظام هو قمة القوانين الكونية من الذرة
الى الانسان .

وأكبر المعنويات الانسانية وأشملها وأعماها هو الايمان
وهو جماع النظام العقلى كله . وهو مظهر هذا النظام .
والذين يحرمون صفة الايمان يدلون بذلك على أن فى نظام
عقلهم اضطرابا خلقيا يصعب علاجه . وبدون الايمان تصبح

الحياة حيوانية محضة . ولا يعنينا ما يؤمن به الانسان
ما دام يؤمن بشيء . لأن الايمان مهما يختلف موضوعه يدل
على نظام في التكوين العقلي المخي .

ومن أخص صفات العقل تجسيه المعنويات . وهذا
التجسيم نتيجة للتيارات الصادرة من المخ والتي تسلك
مسالك معبدة — خلقيا أو بالاكْتساب — فتظهر على صورة
أعمال يقوم بها الانسان . وتجسيم الايمان هو الدين .
والصورة التي يتخذها هذا التجسيم تختلف . ومن هنا كان
اختلاف الأديان باختلاف نظام العقول وأن يكن الأصل
واحدا . والأديان حين تختلف تتفق في جوهرها . وهو الايمان
بوجود قوة عليا . والخضوع لأوامر بعينها ، والالتناء عن
محرمات بعينها . وتختلف هذه الأوامر والنواهي ولكنها
موجودة في كل دين . وهي غير نوعية فقد يكون ما هو حرام
عند بعضها حلالا عند غيرها . ولكن الحلال والحرام
موجودان في كل دين .

وسيزعج الكثيرين ما في هذه النظرية من هدم لأمر
عزيزة علينا ، وما فيها من نزول بأرقى ما في الانسان الى
مستوى هو في نظرهم أقل من المستوى الذي وضعنا فيه
المعنويات قديما ، حين جعلناها فيضا من قوة أعلى من

الانسان . وأن هذا النزول يذهب بجمالها وبما فيها من رونق وعظمة وقدسية . وبما كان يتبع ذلك من احساس الانسان بالسمو والارتقاء حين يرى نفسه ، دون الكون كله ، قادرا على فهم المعنويات والتحلى بها .

ومن الناس من يرى الحياة عبئا وحملا ثقيلًا ما لم يكن لها مغزى سام وغاية عليا تسمو على كل اعتبار حيوى أو انساني بحت . وهؤلاء يرون فى نظرية الأصل الطبيعى للمعنويات اخلافا بهذا السمو . ويمدونها من أجل ذلك خطرا على النظام النفسى والفكرى والاجتماعى .

ولا أرى أن التفسير الطبيعى للمعنويات ينزل بها عن المستوى العالى الذى وضعناها فيه قديما ، حين أحسننا بها ولم نكن قد فهمنا كنهها أو سبرنا غورها بعد . والعظمة التى أصلها الرهبة القائمة على الجهل بكنه شىء من الأشياء لاتعد عظمة حقيقية بل مآلها الى الزوال عند زيادة علمنا بها . على حين أن وضع الشىء موضعه الحق من نظام كونى عام يجعل الأشياء العظيمة عظيمة حقا .

ولا يعنينا كثيرا ما قد يكون فى هذه النظريات من أثر فى الأخلاق والسلوك ما دامت صادقة علميا ، مطابقة للواقع . على أنى أعتقد أن الناس يجب أن يروضوا أنفسهم على

أن تكون غاية الحياة تحقيق ما في كل انسان أو كائن حي من قوة ونظام . والتركيب الطبيعي للقوى الكامنة فينا هو الذى يحدد الغايات ويهيىء لنا تحقيقها على اختلاف في مستواها . والذى لا يسمح له نظام تكوينه أن يحقق غايات سامية يخطيء اذا حاول بلوغها لأنه سيخفق في محاولاته لا محالة .

ولا أرى في التفسير الطبيعي للمعنويات نزولا بالانسان فأى شيء أعظم من أن يشعر الرجل أن نبض قلبه وحرارة دمه وعواطفه وفنونه كلها ليست الا جزءا من القوى الضخمة التى يحرك أبسطها السماوات والأرض والنجوم والكواكب. وأرجو أن يعود القارئ الى الفصول السابقة ليتبين ما تؤدى اليه نظرية تفاضل القوانين من تفسير عقلى للضمير الذى هو تطبيق لقانون الكبح في ميدان المعنويات الانسانية ومن تفسير عقلى لقوانين الأخلاق والفضائل وعاطفة الحب وتقدير الجمال . وسيرى أن ذلك كله يرجع الى النظام الطبيعي في التركيب الدقيق للمخ الانسانى . وسيرى كيف يتم تفسير الذكاء والارادة والخبرة والعلم والقضاء والقدر تفسيراً علمياً أصله نظرية تفاضل القوانين . والمشكلة الأخرى التى سنعرض لها هى مشكلة النفس .

وسنرى أنه لا مفر لنا من نبذ بعض الآراء التي تعد من المسلمات . فعلى أن لا نبقى على النفس على أنها شيء مستقل عن الجسم يؤثر فيه دون أن يكون منه . وعلى أن ننظر إلى النفس والشخصية على أنهما صورة النظام الداخلى للذخ . وهى صورة الكترونية يصعب تحليلها كما تحلل المواد الكيميائية . وليس من سبيل إلى التعرف عليها الا بدرس آثارها فى سلوك الانسان وأعماله . فأعمال النفس هى الجهاز الوحيد الذى نستطيع به درس هذا النظام كما يكون الراديو الوسيلة الوحيدة لمعرفة نظام الموجات الأثيرية المحيطة بنا .

والبحوث التى تناولها علم النفس . وخاصة ما يتناوله علم التحليل النفسى يمكن تفسيرها تفسيرا علميا اذا فرضنا ان أصلها تركيب فى المخ يشبه التركيب الألكترونى .

ولنبداً ببحث الاضطرابات النفسية . هذه الاضطرابات ترجع إلى وجود مسالك فى المخ غير منظمة سواء كان شدوذها خلقيا أو كان نتيجة خبرة سابقة غير طبيعية . هذه المسالك القديمة المهجورة ليس لها من القوة ما يجعل أثرها ظاهرا ولكن لها من الأثر ما يجعلها تعترض المسالك الواضحة فى أعمال الانسان فتحدث فيها هذا الاضطراب . كما تكون التسجيلات الضعيفة القديمة فى شريط التسجيل سببا فى

اضطراب التسجيل القوى الجديد . ومن الناس من يعتقد ان
الاضطرابات النفسية لا تعدو أن تكون مخالفة أعمال المريض
لما هو معروف ومألوف . وانها لا تعدو أن تكون عدم توافق
بين الانسان وبيئته . وأن البيئة يرجع الكثير من أثرها الى
ما هو مصطلح عليه أنه طبيعي . وليس هذا صحيحا ، بل ان
الاضطراب النفسى يرجع الى خلل فى النظام النفسى يجمعه
غير طبيعى . مثل ذلك مثل الساعة المختلة . ليس اختلالها
لمجرد اختلافها مع غيرها من الساعات . بل ان اختلالها يرجع
الى أن فى تركيبها اضطرابا أصليا . بهذا يمكن تفسير ما تحت
الوعى وأثره فى النفس . وتفسير الكبت ، وتفسير العقد
النفسية التى كثر التحدث عنها فى البحوث النفسية الحديثة .
وكذلك البحوث فى الشخصية . فهى مجموعة المسالك
التي تؤدى الى سلوك الانسان سلوكا بعينه . وشخصية
الانسان وحدة تتشابه آثارها فى التفكير والأعمال .

والباحث فى أعمال الناس يتبين طريقة تفكيرهم وأسلوبهم
فى الحياة فى حركات أجسامهم وعاداتهم . ولا تفسير لذلك
الا أن يكون النظام العام للعقل والجسم وحدة متشابهة فى
عمومها . فالحدة فى التفكير والطباع يصحبها فى الغالب حدة
فى الحركات والأعمال الجسمية . ولا يمكن تفسير ذلك

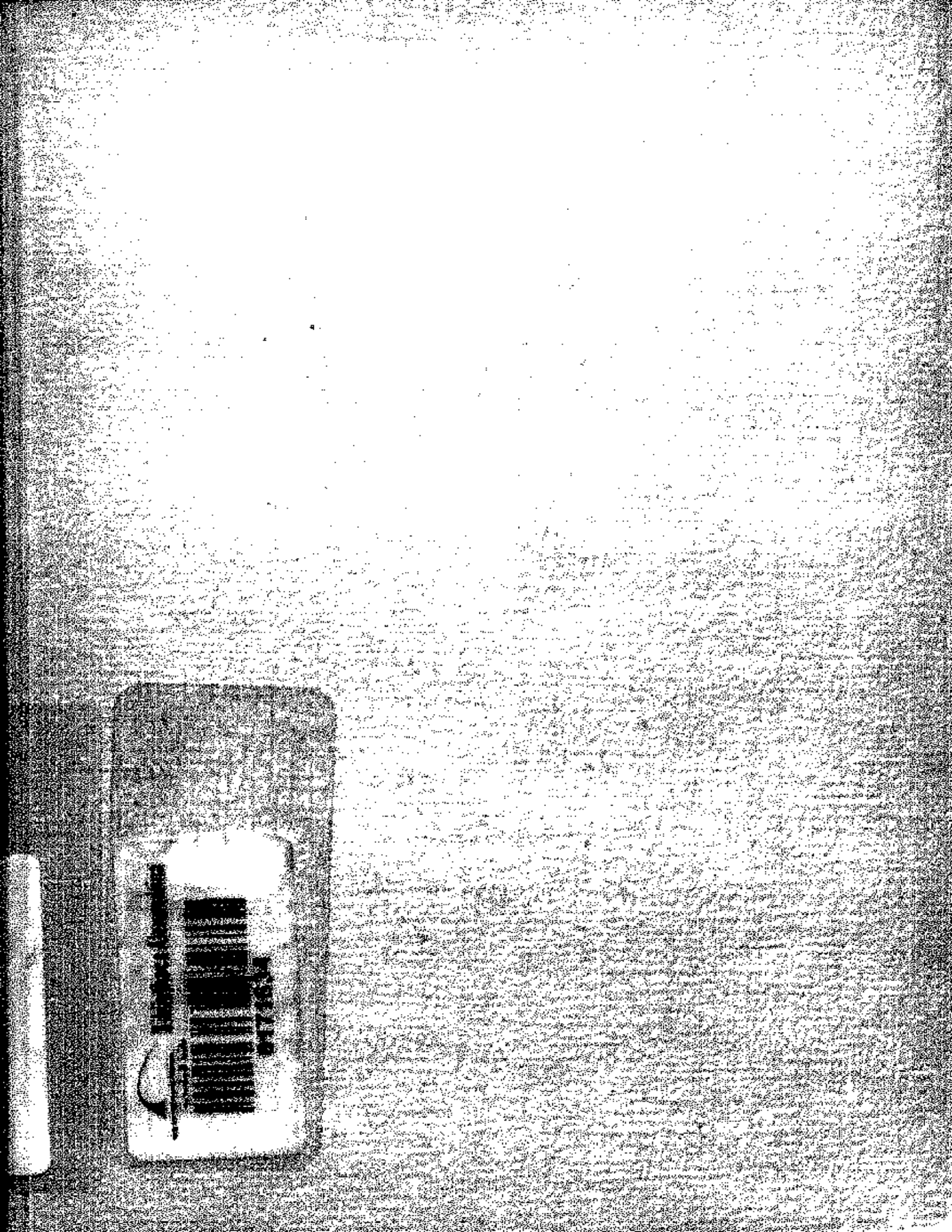
الا على فرض أن نظام المخ واحد في كلا أثره في العقل والجسم .

أما في علوم البيولوجيا فلا أشك أن النظام العجيب الذي تنقسم به الخلية هو نظام لا يمكن تفسيره كيميائيا أو فيزيائيا . وأنه أشبه الأشياء بما يمكن أن يؤدي اليه النظام الإلكتروني الذي يستطيع توجيه الجزئيات دون أن يغير من تركيبها الكيميائي .

وعلى أية حال ، ومهما تختلف التفاصيل . فالواقع أن الكشف عن القوانين الإلكترونية زاد من علمنا بالكون الى حد يجعلنا قادرين على جمع القوانين كلها في نظام متسق . وكلما زاد علمنا بناحية من نواحي البحوث العلمية تبين لنا فيها نظاما لا شك فيه . فالعالم كله ، وكذلك المعرفة مجموعة من الأشياء المنظمة تنظيما يختلف بساطة وتعقيدا حسب طبقة هذه الأشياء من التكوين الكوني ، ولا يشذ عن ذلك عقل الانسان ولا ضميره .

وقد يتغير كل ما نعرف . وقد تكون صورة المعرفة بعد قليل مختلفة تماما عن صورتها اليوم . ولكن شيئا واحدا لن يتغير . وهو أن المعرفة لها نظام ولها وحدة لا يتطرق اليها الشك .





To: www.al-mostafa.com